سلسلة نصوص



المنظمة الماسونية والحق الإنساني

تأليف أندريه برات

ترجمة د. جورجيت الحداد



أندريه برات

المنظمة الماسونية والحق الإنساني

ترجمة

د. جورجيت الحداد

دار الكتاب الجديد المتحدة

المنظمة الماسونية
والحق الإنساني

Original Title:
L'Ordre Maçonnique le Droit Humain
by **Andrée Prat**

نشر هذا الكتاب لأول مرة باللغة الفرنسية عام 2003
في دار المطبوعات الجامعية الفرنسية في فرنسا

© دار الكتاب الجديد المتحدة 2008
الطبعة الأولى
كانون الثاني/يناير/أي النار 2008 إفرنجي

المنظمة الماسونية والحق الإنساني

ترجمة الدكتورة جورجيت الحداد

موضوع الكتاب الحركة الماسونية
تصميم الغلاف دار الكتاب الجديد المتحدة
الحجم 17.5 x 11.5 سم
التجليد عادي

ردمك ISBN 9959-29-356-4
(دار الكتب الوطنية/بنغازي ـ ليبيا)
رقم الإيداع المحلي 2005/6834

دار الكتاب الجديد المتحدة
الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس،
هاتف 04 03 75 1 961 + **خليوي** 39 39 93 3 961 +
05 03 75 1 961 + **فاكس** 07 03 75 1 961 +
ص.ب. 96-11 رياض الصلح ـ بيروت ـ لبنان
بريد إلكتروني szrekany@inco.com.lb
الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية
زاوية الدهماني، شارع أبي داود، بجانب سوق المهاري، طرابلس ـ الجماهيرية العظمى
هاتف وفاكس: 013 07 34 21 218 + **نقال** 463 45 21 91 218 +
بريد إلكتروني: **oeabooks@yahoo.com**

مقدّمة المترجمة

قد يكون لأول مرة يبادر عضو في منظمة ماسونية إلى كتابة مؤلَّف أكاديمي عن المنظمة التي ينتمي إليها، وقد ساعده على ذلك أعضاء من المنظمة لكي تظل أقواله وكتاباته في الإطار المطلوب ولا تتعداه إلى نواحٍ لا يريد الماسونيون أن تُطرق.

على كل حال أن «المنظمة الماسونية ـ الحق الإنساني» ليست الوحيدة، فهناك منظمات عديدة في الماسونية اتخذت أسماء مختلفة مثل «الشرق الكبير» وغيرها، لها طابع واحد وهو السرية في ممارسة الاجتماعات والنشاطات واتخاذ القرارات؛ كما أنها جميعها تعتمد مبدأ المساررة (أي تعلم مبادئ الماسونية بالتدرّج، ثم القيام بالتعبير عنها في اجتماع يضم كبار الأعضاء الذين عليهم أن يُجمعوا على إدخال العضو المتدرج).

أما «منظمة الحق الإنساني» فهي حديثة العهد تعود إلى أواخر القرن التاسع عشر وتتميّز بكونها مختلطة بين النساء والرجال، بينما المنظمات الماسونية الأخرى لا تقبل هذا الاختلاط؛ وقد أنشأ بعضها محافل خاصة بالرجال وأخرى خاصة بالنساء. من هنا فإن «الحق الإنساني» كانت السباقة والشاذة في هذا المجال، كما أنها ارتبطت بنضال طويل الأمد لإحلال المساواة بين الرجل والمرأة.

يكشف هذا الكتاب أيضاً بعض جوانب التنظيم الماسوني من حيث طرق إدخال الأعضاء وهيكلية التنظيم والرتب الماسونية التي تندرج على 33 درجة لبلوغ المستوى الاعلى الذي يهيِّئ الشخص ليصبح «معلماً أكبر».

وقد شهدنا في هذا الكتاب أيضاً عرضاً لبعض المجالات الاجتماعية والسياسية التي كانت تعمل فيها منظمة «الحق الإنساني». لكننا نعلم ايضاً أن بعض الماسونيين المنتمين إلى منظمات ماسونية مختلفة قد وصلوا إلى مراكز سياسية كبرى وعالية، مثل مدراء عامين في الدولة أو وزراء، وكان هناك في حكومة الرئيس فرنسوا ميتران François Mitterrand الاشتراكية التي تراسها بيريغوفوا 12 وزيراً ماسونياً عام 1992.

هذا وبالرغم من الطهروية الماسونية فإن بعض كبار الماسونيين ارتبطت أسماؤهم بملفات الفساد والرشوة وأُدخل بعضهم السجن لاقترافهم أعمالاً عرضتهم للملاحقة، وكانت حجتهم أن تضامنهم مع إخوانٍ لهم فاسدين أوقعهم في المحظور.

هنا لا بد من الإشارة إلى أن الماسونيين يتميَّزون بالتضامن القوي فيما بينهم، ويتساعدون في شتى المجالات ويتبادلون الخدمات على اختلاف أنواعها.

اخيراً، كما يوضح هذا الكتاب، لا وجود لفروع لهذه المنظمة في البلدان العربية، بحسب لائحة البلدان، ولكن لا شك أن لدينا فروعاً لمنظمات ماسونية أخرى، كشفت عن نفسها في مناسبات معيَّنة.

نأمل بأن يكون هذا الكتاب قد كشف بعض الأمور السرية التي تحاك حولها الأساطير بالنسبة إلى الماسونية.

مــــقــــدّمــــة

تحتل «المنظمة الماسونية والدولية ـ الحق الإنساني»، داخل الماسونية مكانة مميَّزة. إنها جمعية مُساررة (تعلم تدريجي لأسرار الماسونية) كسائر التابعيات الماسونية، وهي تتميَّز عن سواها ببعض الخصائص مثل الاختلاط والصفة الدولية والاستمرارية المساررية.

إن تسميتها الأكثر رواجاً هي «الحق الإنساني». فهذه الصفة التمييزية إنما تنم عن مدى التزام أعضائها به. وبهذه الصفة كان المحفل المختلط الأول، والذي أُنشئ عام 1893 على يد جمهوريَّيْن اثنين ملتزمَيْن بالنضالات الاجتماعية هما: ماريا دوريسم وجورج مارتن، (Maria Deraismes, Georges Martin) يهدف إلى التعبير عن الغاية التي يراد بلوغها ألا وهي السعي من أجل تمتع جميع البشر بالحقوق نفسها. وكما عبَّر عن ذلك جورج مارتان عام 1896 بقوله: «إن علَّة وجود المنظمة المختلطة هي إلغاء عبودية النساء وتأمين حقوق الطفل».

لقد كان القانون النابوليوني يضع بالفعل النساء والأطفال تحت وصاية الأزواج والآباء. وفي ظل الحضارة الصناعية في القرن التاسع عشر استُخدمت بشكل واسع اليد العاملة النسائية والأطفال في غياب أي تشريع خاص. في وقت كانت فيه الحركات

العمالية في تلك المرحلة قد تجاهلت هذه المشكلة. فالحركات النسائية نمت إذن داخل البورجوازية الجمهورية المتنورة، وهي الفئة الاجتماعية التي انبثق منها مؤسسو «الحق الإنساني»، في مرحلة أخذت الجمهورية خلالها تركز دعائمها.

كان الاختلاط خلالها قليلاً ما يُطبَّق، سواء في المدرسة أم في العمل. والمحفل المختلط الأول راح يطرح داخل الماسونية مسألة قبول النساء في المساررة بالشروط نفسها الخاصة بالرجال. إنها مسألة مربكة في زمن كان مبدأ «اللانساء» في المحافل هو القاعدة.

وفي عام 1901 أصبح المحفل المختلط هو «المنظمة الماسونية المختلطة الدولية ـ الحق الإنساني»، كأول تابعية دولية.

فجمعت تحت سلطة وحيدة يحددها «الدستور الدولي» ويمارسها «المجلس الأعلى» برئاسة «المعلم الأكبر المنتخب»، مجموع الماسونيين من جنسيات ولغات وثقافات مختلفة منتشرة في كل القارَّات (من حوالى خمسين دولة). في عصر العولمة هذا ندرك كم كان خيار الصفة الدولية عام 1901 مستقبلياً لا بل واعداً.

ومنذ ذلك التاريخ تطور «الحق الإنساني» من حيث عدد الأعضاء ومن حيث المشاغل [محافل فرعية خاصة بالعمل العقائدي الماسوني] التي اجتمعت في هرم كبير ينطلق من درجة أولى ويصل إلى درجة 33. وفي حين أن التابعيات الأخرى تفصل المشاغل الرمزية (من الدرجة الأولى وحتى الدرجة الثالثة)، عن المشاغل من الرتب العليا (من الدرجة الرابعة وحتى الدرجة 33)، فإن «الحق الإنساني» يدير وضمن تنظيم وحيد، مجمل الدرجات الموجودة في إطار «الطقس الإِسكتلندي القديم والمقبول».

شهدت المنظمة في مسيرتها حقبات زاهية ولكنها عرفت أيضاً «الأزمات» لا سيما أثناء الحربين العالميتين الكبريَيْن. ونجحت في تثبيت قوة الإنسانية الماسونية وقواعدها التي قامت على أساسها دون أن تقع في التحجر الخطر. فالممارسة الصارمة للطقوس وانضواء الجميع من إناث وذكور تحت المثال الأعلى للحرية والمساواة والعدالة والتسامح والعلمانية قد شكّلا لُحمتها المتينة. ويضع ماسونيو «الحق الإنساني» ضمن احترام هذه الحقوق هدف تقدم البشرية، الذي يسعون من أجله إلى جانب التابعية الماسونية الأخرى مع خصوصياتها.

الفصل الأول

المرأة والماسونية

تمَّ بناء «الحق الإنساني» في نهاية القرن التاسع عشر. فالثورة الفرنسية لعام 1789 كانت ما تزال قريبة العهد، و«أفكار 89» ما فتئت حيَّة في النفوس والذاكرة. لقد ألهمت التيار الجمهوري خصوصاً أثناء ثورات الـ 1830 والـ 1848؛ فبلغت أهدافها مع الجمهورية الثالثة. وكان يجري الكلام على الحرية والمساواة في حين أن هذا القرن كان يشهد في الوقت نفسه ولادة الثورة الصناعية الأولى وتطورها. ففي المصانع والمحترفات والمتاجر كانت تُستخدم بشكل مفرط اليد العاملة النسائية. لكن لم يكن المجتمع ولا التشريع يمنحان المرأة حقوقاً مشابهة لحقوق الرجل. ففي هذا السياق تتموضع مبادرة ماريا دوريسم وكذلك تأسيس «الحق الإنساني».

1 ـ المرأة في المجتمع في القرن التاسع عشر

دمغت ثورة عام 1789 مرحلة هامة في تاريخ الشرط النسوي، ليس لأن هذه الثورة تعترف بالمساواة بين البشر بل لأنها فتحت ثغرة لن تُغلق في القرن التالي. فخلال الأيام الثورية

كانت النساء حاضرات وناشطات. فأُنشئت نوادٍ نسائية وجمعيات أخوية. وتحول العديد من الصالونات التي كانت حتى ذلك التاريخ أدبية وفلسفية حصراً إلى حلقات سياسية، مثل صالون السيدة رولان.

وكانت أعداد النساء كثيرة داخل الحشود التي انطلقت في تشرين الأول/أكتوبر عام 1789 من فرساي إلى باريس «الخباز والخبازة والصبي الخباز» معاً. أما حائكات اليعاقبة(*) فقد كنَّ مشاهدات مثابرات في ذلك النادي الشهير. وكن يعبّرن خلاله عن أفكارهنَّ. لقد كانت النساء مُوْقدات العزائم الحقيقيات وبفضل نشاطهن الاجتماعي في الأحياء حافظن على نضالية شعبية ومدينية. لكنهن استُبعدن عن بعض القرارات: فلم يحصلن على حق حمل الشارة الوطنية ثلاثية الألوان. ورغم أنهن كن يرين غالباً أن الجمهورية هي الشكل الضروري للاعتراف بحقوقهن؛ هذا ما عبَّرت عنه مثلاً تيروانيه دو مريكور ولويز دو كراليو وكلير لاكومب (Théroigne de Méricourt, Louise de Keralio, Clair Lacombe) وهذه الأخيرة كانت مع أولمب دو غوج (Olympe de Gouges) من أوائل النسويات أثناء الثورة الفرنسية.

إن الثورة لم تعترف للنساء بالحقوق نفسها التي للرجال. إنهن بالنسبة إلى سييس (Sieyès) (أحد رجال ثورة عام 1789) «مواطنات متلقيات». وكما سبق أن قال روسو (Rousseau): بأن العديدين كانوا يعتبرون أن المرأة لا يمكنها أن تبلغ المجال

(*) اليعاقبة (les Jacobins) هم رهبان متعصبون للديموقراطية المركزية أيام الثورة الفرنسية.

السياسي؛ ورغم ذلك نشر كوندورسيه (Condorcet) عام 1790 كتاباً «**حول قبول النساء في حق المدينة**». ولكنه لم يلق آذاناً صاغية. وفي عام 1791 أيضاً جاء إعلان حقوق النساء والمواطنة لأولمب دو غوج (Olympe de Gouges) رداً على إعلان حقوق الرجل والمواطن في 26 آب/أغسطس عام 1789. في عام 1793 تمَّ إعدام أولمب دو غوج لأنها نسيت «الفضائل التي تليق بجنسها». (المرشد العالمي، 29 برومير، العام الثاني، 19 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1793). في الواقع، لقد قامت الديموقراطية دون النساء. إلا أن الثورة قد أقرت إلى حد ما المساواة المدنية: فحقوق الحرية والأمان والملكية هي للجميع. فالمرأة كالرجل لها حقٌّ في الإرث؛ والزواج الذي أصبح عقداً مدنياً يمكن فسخه بالطلاق. إن القانون المدني لعام 1804 لم يمحص مسألة شرعية الطلاق. رغم أن أحد الذين قاموا بإعداده وهو پورتاليس (Portalis) الذي كان قد أشار في كتاباته إلى أن المرأة لها الحق في «الحماية الدائمة لقاء تضحية لا رجوع عنها». فالمرأة المتزوجة هي قاصر وقد وضعت تحت سلطة زوجها. في عام 1816 وبعد رجوع عائلة البوربون (Bourbon) إلى العرش، كان الطلاق يُنعت بأنه «سم ثوري». إلا أن المجتمع تطور مترافقاً والتحولات الاقتصادية وتكوَّنت الطبقة العاملة تدريجياً مع تحول بعض المناطق صناعية، وتوسعت الأحياء العمالية متلقفةً بذلك أعداداً متزايدة من السكان.

إن الثورات التي عرفها التاريخ السياسي الفرنسي (1830 و1848) لم تقدم أي تغيير ذي دلالة. فالجمهورية الثانية كانت هي نفسها عاجزة عن القيام بالخطوة الأولى: فهي قد منحت فعلاً حق الانتخاب العام ولكنه كان انتخاباً «ذكورياً». وظلت فرنسا خاضعة لماض أوروبي سحيق حيث كانت المرأة مستبعدةً عن توارث

العرش. سجل عام 1848 القطيعة بين الاشتراكية وبين الحركتين العمالية والنسائية. لقد كانت جماعة سان ـ سيمون (Saint-Simon) فقط هي التي تجمع بين البُروليتّاريا وبين النساء. وكان هناك بعض المراوغة حول الحق في الانتخاب. حتى أن أحد الماسونيين مثل ليون ريشير (Léon Richer) كان يبدي تحفظات معيَّنة رغم تأييده قضية النساء. وقد ذكر هونوره دي بَلزاك (Honoré de Balzac) في كتابه «**فيزيولوجيا الزواج**» أن: «المرأة هي ملكية نستحوذ عليها من خلال العقد؛ فهي «متاع منقول» كما تعرِّفها الملكية؛ في النهاية إن المرأة بكل صراحة ليست سوى ملحقة بالرجل». بل حتى أننا نجد هذه الأقوال معتدلة إذا قارناها بأقوال برودون (Proudhon) الذي يسترسل في أحكام في غاية القساوة لا بل في الفظاظة البالغة حول دونية المرأة. لكننا نجد استثناءً هاماً جداً وهو فكتور هوغو (Victor Hugo)، الرئيس الفخري «للرابطة الفرنسية لحقوق النساء» عندما عبَّر عن وجهة نظره بالكلمات التالية: «هناك مواطنون، وليس هناك مواطنات. إن هناك حالة من العنف، ينبغي إيقافها».

مع هذا أخذت الحركة النسائية تتطور، وفي عام 1876 أنشأت هوبرتين أوكلير (Hubertine Auclert) حركة «حق النساء». لقد احتلت النسوة مكاناً هاماً في الحياة الاقتصادية، وازدادت أعدادهن في المصانع والمحترَفات والمتاجر. وأخذن تدريجياً يحصلن على التعليم: ففي عام 1861 كانت جولي دوبييه (Julie Daubié) أول امرأة تحصل على البكالوريا، وفي عام 1880 أسس پول برت (Paul Bert) المدارس الثانوية للإناث. وأصبحت النساء مدرِّسات، و«جباة وعاملات سيدات بريد». وبدأ الاعتراف بوجودهن في نشاطات جديدة: ففي عام 1892 طلبت جان شوڤان (Jeanne Chauvin) تسجيلها في سلك المحاماة. لكن لم يقر للنساء

بهذا الحق إلا في عام 1899. فقانون عام 1884 حول الجمعيات منح النساء حق الانتساب إلى النقابات. ولكن لم يسجِّل أن احتلت أية امرأة أية مسؤولية مع أن مصانع الغزل في روبي (Roubaix) [شمال فرنسا] مثلاً كانت غالبية اليد العاملة فيها مؤلفة من النساء.

وأخذت النساء يسعَيْن لكسر القيود والخروج من عزلتهن. وأصبحت كلمتهن مسموعة: وفي المؤتمر العمالي في مرسيليا لعام 1873 لفتت الانتباه مداخلة هوبرتين أوكلير، ولكنها لم تؤخذ بعين الاعتبار في المقررات التي وضعت إِثْرَ المؤتمر. وكانت مؤلفات فلورا تريستان (Flora Tristan) التي تحفل بوصف ظروف العاملات وبؤسهنَّ مقروءة وتلقى الإعجاب. وكانت لويز ميشال ونيلي روسيل وپولين كيرغومار وبلانش كرمنيتز (Louise Michel, Nelly Roussel, Pauline Kergomard, Blanche Cremnitz)، وماريا دوريسم خطيبات شهيرات. كما أن ترجمة كليمانص روايه (Clémence Roeyer) مؤلفات داروين (Darwin) قُرئت باهتمام ملحوظ. لقد تطورت النزعة النسوية في وسْط البُورْجوازِيَّة الجمهورية، وفضلاً على ذلك فإن بعض الشخصيات من الرجال قد قدمت دعمها للحركة النسائية: ومن بينهم ليون ريشير وجورج مارتان. ففي عام 1882 أسس الأول الرابطة الفرنسية من أجل «حق النساء» حيث كانت ماري پونيون وماري بونوفال (Marie Pognon, Marie Bonnevial) أول امرأتين تتوليان رئاسة الرابطة. هنا تجدر الإشارة إلى أنه في السنة نفسها حصلت ماريا دوريسم على المساررة الماسونية في محفل ذُكوري، وفي عام 1893 أسست مع جورج مارتان جمعية «الحق الإنساني». لقد اندرج هذا الحدث بشكل عام في الحركة المطلبية النسائية. إنها طريق أخرى تلك التي تميِّز الماسونية.

2 ـ المحافل الماسونية الذُكورية

ما هو موقف الماسونية إزاء فكرة قبول النساء فيها؟ إن تكوين «الحق الإنساني» يتمركز في تاريخ الماسونية الفرنسية، التي تعود محافلها الأولى إلى القرن الثامن عشر والتي تستند إلى نص تأسيسي يتمثَّل في: «دساتير أندرسن Constitution d'Anderson» (1723). يحدد هذا النص بشكل خاص من هم الذين في إمكانهم «أن يصبحوا ماسونيين رجالات خير ومستقيمين، ولدوا أحراراً وفي عمر ناضج، يتصفون بالرزانة، وليسوا عبيداً ولا نساء وليسوا رجالاً فاسقين وفاحشين بل من ذوي السمعة الحسنة». مبدأ «اللانساء» هذا والذي لا استئناف فيه كانت تتقيد به التابعيات الكبرى في تلك الحقبة من «الشرق الكبير لفرنسا» الذي نشأ عام 1773 إلى «المجلس الأعلى للطقس الإِسكُتلندي» الذي انبثق عنه عام 1880 «المحفل الرمزي الإِسكُتلندي الكبير» وعام 1894 «المحفل الكبير لفرنسا» المكوَّن في شكله الحالي. لكن هل كان لهذا المبدأ من مبرر؟ ليس لهذا الأمر أي جواب صريح. إن الماسونية التي تدَّعي أنها وريثة بنَّائي القرون الوسطى يبدو أنها تجهل أن من بين هؤلاء البنَّائِين كان ثمة نساء. هل علينا أن نرى خلف هذا الرفض عبء التقليد اليهودي ـ المسيحي المتمثل في أسطورة الخطيئة المميتة عند حواء؟ هل علينا أن نكتفي بالنظر من خلاله إلى تأثير العادات الاجتماعية؟ فالماسونية تعكس الموقف الدنيوي الذي يحصر المرأة في الأعباء المنزلية وتربية الأولاد، حيث من مهمتها إنجابهم. إذن كيف في الإمكان أن نتصورها تعمل في المحفل؟

في المقابل، إن بعض الماسونيين في المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر قد التزموا فُرَادَى المعركة من أجل حق النساء،

فاستقبل «الشرق الكبير لفرنسا» عام 1868 ماريا دوريسم لتحاضر في موضوع «الأخلاق». في عام 1869 أثار ليون ريشير مسألة احتمال مسارّرة النساء، وهي فكرة استعادها القس فريديريك ديمون (Frédéric Desmons) عام 1870. هنا يجب فصل النساء عن التأثير الكهنوتي، بالتالي تعود إلى المرأة تربية الأولاد، أيضاً الواجب أن ترسّخ لديهم القيم الجمهورية والعلمانية. عام 1870 نظم ليون ريشير مع ماريا دوريسم أول مأدبة نسائية. لكن هل من الممكن التوصل إلى العودة عن مبدأ «اللانساء»؟ إنه الأمر الأكثر استبعاداً لأن التحفظات عليه بقيت شديدة. ولم يكن الماسونيون مستعدين بعدُ لهذا التغيير.

3 ـ محافل التبني

غير أن الماسونية، مع ذلك، لم تكن تتجاهل النساء. ففي عام 1774 اعترف «الشرق الكبير لفرنسا» «بماسونية السيدات» ضمن محافل التبني. بالطبع في تلك الفترة، كان هناك فعلاً بعض التحفظات لدى البعض أمثال الفارس دي لاتييرس والفارس دو رامسيه (De La Tierce) (De Ramsay).

لقد أظهرت الصالونات الأدبية في عصر الأنوار قدرة النساء على جمع الفلاسفة والعلماء في مناقشات حول الأفكار الجديدة. إن الماسونية لا تنكر هذا الأمر. لكن علينا أن نتساءل عن الأسباب العميقة وراء تكوين محافل التبني. يقول دانيال ليغو (Daniel Ligou) بشكل فكاهي إن هذه المحافل سمحت بتصريف فضول النساء. لكن هناك بالطبع تفسيرات أخرى. زد على ذلك، لماذا ترغب النساء في أن «يتمسوَنَّ»؟ هل لأن محيطهن يتميَّز بامتثالية اجتماعية؟ أم ليوهِمْن الآخرين بانعتاق حقيقي؟ أم الالتزام بالأفكار

الجديدة التي توسعت في الصالونات أي أفكار الحرية والمساواة؟ إن هذه المحافل قد وجدت بالفعل وليس مهماً أن تكون دوافعها الحقيقية صعبة التحديد.

إن محافل التبني هي من «أرُومة» المشاغل الذُكورية، وهي تابعة لها. «فالنساء المتبنّيات» لا يحصلن على مساررة الرجال نفسها؛ إذ لهنّ طقوسهن الخاصة، التي مراجعها الرمزية والثقافية هي بصورة أساسية توراتية (برج بابل، سلم يعقوب، جنة عدن) وموضوع الفضيلة فيها يتردد بشكل دائم. يدير هذه الاجتماعات مجمعان اثنان من الأحبار: الأول، ذُكوري والثاني، أُنثوي. وتقوم على إلقاء الخطابات وقراءة الأشعار. وتُستكمل بالحفلات الراقصة والموسيقية والأعمال الخيرية. في القرن التاسع عشر صمدت هذه المحافل ولكن نجاحها كان يقوى أو يضعف بحسب الأطوار إلا أن بعض التغييرات قد أصابها. فالاختيار الذي كان بصورة جوهرية أَرستقراطياً في القرن الثامن عشر أصبح الآن اختياراً بورجوازياً. وهكذا كان يتبع تطور المجتمع. بالإضافة إلى ذلك، فقد لوحظ على مُضيّ الزمن أن نسبة المساهمة الذكورية ضعفت وأصبح الاختيار أُنثوياً فقط، وأعيدَ النظر في الطقوس وأصبحت أكثر انسجاماً مع المثال النموذجي للماسونية.

بموازاة ذلك نستشف بعض دلائل التجديد. ففي عام 1838 وخلال جلسة تبني، تمت الإشارة بشكل محدد إلى أن النساء الثلاث اللواتي سيجري تبنيهن «سيخضعن لاختبارات الرجال الماسونية العادية». في المقابل، أنشأ بيير ريش ـ غاردون (Pierre Riche - Gardon) مشغلاً خاصاً تأسس في 14 تشرين الثاني/نوفمبر من عام 1860 تحت اسم «هيكل العائلات». إن هذا المشغل العائلي يتميَّز بحسب مبتكره «بماسونية عملية». هل يمكن

أن نرى في هذا بداية الاختلاط؟ لقد قام هذا المشغل بنشر «جريدة المسار» التي نجد فيها عبارة «الحق الإنساني أو الماسوني». كانت هذه التجربة قصيرة من حيث مدتها إذ أنها توقفت عام 1863. إنها بالطبع لم تغيِّر شيئاً في العمق.

الفصـل الثانـي



مسـاررة ماريـا دوريسـم
(Maria Deraismes)



إن فكرة مسـاررة ماسونية حقيقية للمرأة أخذت تصبح أكثر فأكثر حاضرة في النفوس. مع هذا لم يحدث أي شيء حاسم قبل عام 1882، وهو تاريخ مسـاررة ماريا دوريسـم. فلكي يتحقق هذا الأمر كان لا بدَّ من تلاقي مشغل من «المحفل الرمزي الإِسكُتلندي الكبير» المستعد للتغيير الثوري، مع شخصية امرأة استثنائية كماريا دوريسم.

1 ـ إنشاء «المحفل الرمزي الإِسكُتلندي الكبير»، المرحلة الحاسمة

في 12 شباط/فبراير عام 1880، انفصل اثنا عشر محفلاً رمزياً عن «المجلس الأعلى للطقس الإِسكُتلندي القديم والمقبول»، وأنشأوا قوة ماسونية جديدة هي «المحفل الرمزي الإِسكُتلندي الكبير». هذه التابعية الشابة بَنْينت دستورها حول مبدأين أساسيين هما: استقلالية المحافل الزرقاء، وحرية الضمير. ولكنها

لم تدم أكثر من خمس وعشرين سنةً. فالجمهوريون الشبان الذين يؤلفونها مثل شيفر وأوغوست دي مولان وغومان كورنيه، (Schaeffer, Auguste Desmoulins, Goumain-Cornille)، كانوا يطمحون إلى تنظيم ديموقراطي يحثُّهم على ذلك هاجس المساواة الأخوية والعدالة الاجتماعية.

إن انتخاب رئيس هذه التابعية الفتية أصبح يجري سنوياً. وفي عام 1881 و1882 انتخب جورج مارتان رئيساً. رغم أن «المحفل الإسكُتلندي الرمزي الكبير» قد أدرج في دستوره مبدأ استقلالية المحافل، إلا أنها رفضت بأغلبية ضئيلة قبول النساء في الماسونية. لقد تطورت التابعية بصورة سريعة، وارتفع عدد المشاغل خلال خمس عشْرة سنة من 12 إلى 36 مشغلاً (لم تضم أي مشغل من الرتب العليا). فمسألة مساررة النساء أثارت أول مشكلة هامة كان على التابعية الفتية أن تجد حلاً لها. إن المشاغل المتوائمة مع هذا التطور استندت إلى مبدأين هما: الماسوني هو حر في محفله الحر وكل محفل يمتلك استقلاليته الخاصة به. لكن «المحفل الرمزي الإسكتلندي الكبير» بقي على موقفه. إزاء هذا الرفض المتجدد، لم يقبل أعضاء محفل «المفكرين الأحرار»، لمدينة بيك في منطقة الإيفلين [إحدى الضواحي الباريسية]، والذين أدرجوا في نظامهم الداخلي شروط هذه المساررة، لم يقبلوا هذا الفيتو وتركوا التابعية. بعد بضعة أيام، وفي 14 كانون الثاني/يناير من عام 1882، قام هوبرون (Houbron)، «معلم المحفل الجليل»، بمساررة لماريا دوريسم بشكل منتظم وبحضور العديد من المدعوين ومن بينهم جورج مارتان. وبصورة سريعة حامت الشبهات حول المشغل فافترق الأعضاء، واستقال بعضهم والبعض الآخر عاد إلى «المحفل الإسكتلندي الرمزي الكبير»، ثم تلاشى المشغل. وغدت ماريا

دوريسم ماسونية بدون محفل طوال أكثر من 11 سنة. إلاّ أن مسارّرتها سمحت بإنشاء أول محفل مختلط في عام 1893.

بعد عدة سنوات وفي عام 1896، عاد «المحفل الرمزي الإسكتلندي الكبير» إلى مزاولة نشاطه واندمج في «محفل فرنسا الكبير» الذي تكوَّن عام 1894 بموافقة «المجلس الأعلى للطقس الإسكتلندي». وظلّ «محفل ديدرو (Diderot)» هو الاستثناء الوحيد المكوَّن من قدامى العاميين [أنصار الثورة العامِّية الباريسية عام 1871]. فأحيا هذا المحفل، مع مشاغل أخرى، التابعية تحت اسم «المحفل الرمزي الإسكتلندي الكبير المصان». لقد حصلت بعض النساء في هذه التابعية على المسارّرة وأشهرهن كانت لويز ميشال (Louise Michel)، وهي الشخصية التي دمغت بقوة تاريخ عامِّية باريس. لقد كانت حياة «المحفل الرمزي الإسكتلندي الكبير» قصيرة الأجل، ولكن أحد محافلها قد سمح لماريا دوريسم بتلقي النور، أي بالمسارّرة.

2 ـ ماريا دوريسم

ولدت ماري ـ إديلايد دوريسم (Marie-Adélaïde Deraismes) المسماة ماريا، في باريس، شارع سان دوني «Saint-Denis» في 17 آب/أغسطس من عام 1828، وفي عائلة بورجوازية ليبرالية وجمهورية. كان والدها وكيل مبيعات؛ ووالدتها آن سوليه (Anne Soleil) كانت ابنة الأخ والوريثة «لنظاراتي» أَطلق اسمه على زجاجات مصابيح عدسية الشكل. وأختها البكر أَنطوانيت ـ آن ـ ماري (Antoinette-Anne-Marie) التي تكبرها بسبع سنوات كانت تُعرف أكثر باسم آن فيريس ـ دوريسم (Anna Féresse-Deraismes).

لقد كانت ماريا امرأة متعلمة ومثقفة مثالية. كما كانت تربيتها أرفع شأناً من سواها من فتيات عصرها، وكانت واسعة الاطلاع؛ فشملت دراستها اللاتينية واليونانية والفلاسفة والتوراة وآباء الكنيسة وترجمات كتب الهند المقدسة والديانات الشرقية. وفي سن الثانية عشرة خاضت تجربة الفن الخطابي ومن أجل هذا الهدف حوَّلت الكُشْك في حديقة أسرتها إلى منبر، حيث راحت تلقي الخطابات. وكتبت في سن الشباب عدة قطعٍ مسرحية كانت تعرض آنذاك في الصالونات البورجوازية وأيضاً نشرت رسائل هجاء. ولخيار شخصي ظلت ماريا عزباء. لقد توفي والدها عام 1852، ووالدتها عام 1861. أما آن ـ فيريس دوريسم شقيقتها فقد أصبحت أرملة عام 1865 دون أولاد فعادت إلى المنزل العائلي. عندئذٍ عاشت الأختان حياة ثقافية غنية، وكان يتوافد على صالونهما الشخصيات الديموقراطية والليبرالية الأكثر شهرةً. خاضت ماريا مع مجموعة من النساء عام 1866 المعركة من أجل تحرر المرأة وأصبحت الناطقة باسم هذه الحركة. وكانت تدير «جمعية المطالبة بحقوق النساء» التي تناضل من أجل تطوير تعليم الإناث. لقد عملت ضمن هذه الحلقة في محاذاة لويز ميشال. كما ساهمت بصورة منتظمة في مختلف الجرائد مثل «الجريدة الكبرى» و«العصر» و«القزم الأصفر»، وكذلك في مجلة «حقوق النساء» التي أصبح اسمها عام 1871: «مستقبل النساء».

غير أنها لم تعبِّر يوماً عن اعتراض على الجنس الذكوري، وقد كتبت: «نحن نرى في الرجل والمرأة هوية ممتزجة، هي خليط من نفس الطَّمْيِ ومن نفس الطينة، تحييها نفس الأنفاس، فهناك تكافؤ بين الاثنينِ».

في تلك الحقبة حيث كانت البابوية والصحافة الكنسية

تهاجم الماسونية هجوماً صريحاً، نظم «الشرق الأكبر لفرنسا» للدفاع عن نفسه محاضرات عامة، فأخذ ليون ريشير (Léon Richer) يلتمس مساعدتها. بعد أن ترددت ماريا في الاستجابة، انتهت بالموافقة على إِثْر قراءتها مقالاً سفيهاً يتناول «الجوارب الزرقاء»، أي النساء اللواتي يدعين امتهان الكتابة.

لاقت هذه المحاضرة الأولى عن «الأخلاق» نجاحاً كبيراً: وكان توافد الحشود هائلاً، فسريعاً ما عبَّرت الصحافة عن قدرة هذه الخطيبة البليغة. يجدر هنا التذكير بأن الإمبراطورية التي حكمت حتى بداية ستينيات القرن التاسع عشر كانت قد حظرت المحاضرات التي تتناول أفكاراً لا تتوافق مع تفكير النظام السائد (فالقانون حول حرية الاجتماعات العامة يعود إلى عام 1868).

لقد تابعت ماريا معركة النضال من أجل تحرير المرأة عبر المحاضرات والمؤتمرات. كانت المواضيع كثيرة التنوع، وأخذت تتناول، مداورةً، الأخلاق والتاريخ والأدب. وفي كل الحالات كانت تنادي بكامل حقوق المرأة سواء منها السياسية أم المدنية. فمحاضراتها التي كانت في البداية معتدلة أصبحت أقل امتثالية. لقد تحولت تلك المناصرة لڤولتير (Voltaire) علمانية وأضحت المرأة الليبرالية ذات نزعة اشتراكية. لقد أقامت اتصالات مع العاملات المناضلات وانتسبت إلى جمعية «أصحاب الأقلام». إلا أنها أصيبت بالتهابات رئوية متكررة منعتها لفترة معيَّنة من اعتلاء المنبر. وخلال صيف عام 1870 ذهبت لتعيش بقرب خالها في مدينة فيلهو «Ville-Houx» قرب جزيرة سان ـ مالو «Saint-Malo» [منطقة في غرب فرنسا]؛ فكانت بالتالي غائبة عن باريس أثناء العامِّية. ثم عادت بعد سنة إلى العاصمة لتقوم بحملة في سبيل دعم الديموقراطية.

عام 1875، أثارت استنكارها مسرحية «راباغاش» للكاتب ڤكتوريان ساردو، «Rabagas» de Victorien Sardou، وهي مسرحية مناهضة للديموقراطية وحاقدة، فعادت إِثْر ذلك إلى منبر الخطابة. لاقت احتجاجاتها نجاحاً كبيراً الأمر الذي دفع رئيس مكتب الشرطة في المحافظة إلى استدعائها وإعطائها نصائح بالتروي خوفاً من أن تهين المنتخبين السياسيين بالطريقة نفسها. لقد انتسبت إلى جمعية «الفكر الحر» وأسست فرعاً لها حيث كانت تدير شؤونه، ثم أنشأت جريدة «التفكير الحر في سين ـ آي ـ واز» «Seine-et-Oise» [المنطقة الباريسية].

عام 1877 دعت ماريا أصدقاءها السياسيين إلى ديارها في ماتوران «Mathurins» قرب مدينة بونتواز «Pontoise» [ضاحية باريسية] وذلك من أجل التحضير للانتخابات التي ستضع حداً لحكم «النظام الأخلاقي» وهو نظام بناه المارشال ماك ـ ماهون (Mac-Mahon) للتمهيد لعودة محتملة للملكية. هذه اللقاءات كانت ذات طابع شخصي ولم يكن في الإمكان حظرها، كما أنها كانت تساهم في تدعيم الجمهورية.

عام 1878 خلفت ماريا ليون ريشير في رئاسة «رابطة تحسين مصير المرأة». وشاركت في المؤتمر الدولي الأول من أجل حق النساء، ثم في المؤتمر المناهض للإكليركية في حزيران/يونيو عام 1881، حيث استقبلت بحفاوة أمام أكثر من 4000 مندوب، وذلك في غياب الرئيس ڤكتور شولشير (Victor Schœlcher).

لقد بلغ نشاطها والتزامها حداً أدَّى إلى تشكيل لجنة من أجل ترشيحها للانتخابات التشريعية. ولكونها سيدة عقلانية رفضت العرض لعلمها بأن ترشيحها هذا غير مقبول قانونياً.

فخلال أكثر من خمس عشرة سنة عملت ماريا دوريسم إلى جانب العديد من الشخصيات الأدبية والفنية فضلاً عن بعض الأعضاء النافذين في التابعيات الماسونية، الذين كانوا يطلبون منها القيام بإلقاء المحاضرات أو ترؤس المظاهرات. يجدر القول إنه لا يمكن تجاهل هذه المرأة والمعركة التي خاضتها.

في 14 كانون الثاني/يناير من عام 1882 منحت ماريا النور من قِبل ماسونيي محفل «المفكرين الأحرار» في شرق مدينة بيك «Pecq» (الموقع الجغرافي لانغراس المشاغل الماسونية). رغم ذلك، فقد بقيت ملتزمة التكتم الماسوني حتى تاريخ نيسان/أبريل عام 1893، وهو تاريخ تأسيسها للمحفل المختلط «الحق الإنساني» بالتعاون مع جورج مارتان. ولكنها لم ترَ التتويج لإنجازها الذي كان ماسونياً بقدْر ما كان دنيوياً. إذ توفيت في 6 شباط/فبراير عام 1894 ووريت الثرى وفق الطريقة المدنية، وترقد اليوم في مقبرة مون مارتر Montmartre. هذه الشخصية غير العادية تستحق فعلاً الكثير من التكريم: ولهذا تمَّ في 16 حزيران/يونيو عام 1895 تدشين شارع يحمل اسمها في امتداد حديقة «إيبينيت» «Les Épinettes» في الدائرة السابعة عشرة في باريس. وفي 3 تموز/يوليو عام 1898 ارتفع في الشارع نفسه تمثال لها يتقلد الشارة الماسونية.

3 ـ مسارزتها

لقد اختار أعضاء محفل «المفكرين الأحرار» في مدينة بيك ماريا دوريسم لكي تكون المرأة الأولى التى جرى مسارزتها. ورغم أن المحفل قد أضاف إلى نظامه الداخلي مادة تسمح مشاركة النساء في أعماله إلاً أن دراسة الترشيح أثارت العديد من

النقاشات. فاللجنة التنفيذية «للمحفل الرمزي الإسكُتلندي الكبير» رفضت تكراراً احتمال قبول المرأة، بيد أن سبعة من معلمي المشغل اقترحوا في 25 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1881 ترشيح ماريا دوريسم، ولكن بعض الأعضاء ظلوا ملتزمين بالنظام الفيدرالي. إلاّ أن التصويت على قبولها قد حقق الفوز. فلكي يظل المحفل سيد قراراته انفصل بصورة إرادية عن «المحفل الرمزي الإسكُتلندي الكبير» في 11 كانون الثاني/يناير عام 1882. إن ماريا دوريسم كانت الشخصية الرائدة التي مكّنت من شقّ طريق جديد.

تمت مسارة دوريسم بعد ثلاثة أيام، أي في 14 كانون الثاني/يناير من عام 1882، وذلك بحضور العديد من الشخصيات الذين كان من بينهم النواب ورؤساء المناطق العامون، والماسونيون أصحاب الأقلام والعلم والفن؛ وافتتح «الجليل» الجلسة بالكلمات التالية: «سنقوم بعد لحظة بتكريس أحد أكبر مبادئنا الإنسانية، الجدير باحترام الجميع: وهو مبدأ المساواة. [...] سنلقّن اليوم الآنسة ماريا دوريسم أعمالنا الماسونية، هذه المرأة السامية التي يجعلها ذكاؤها وموهبتها وعلمها الواسع وجديتها أهلاً للدخول في رابطتنا [...] وإن لم نكن نشارك أفكار جميع الماسونيين إلاّ أننا على الأقل مقتنعون بأن الكثيرين منهم المعروفين بحكمتهم وبموهبتهم ينظرون بترحاب إلى هذه الخطوة التي قام بها اليوم محفل «بيك»».

بحسب القاعدة الماسونية، وقبل أن يتم تقديم المرشحة إلى الهيكل، تكتب وصيتها الفلسفية التي تسمح لها برسم معالم حياتها الكبرى وقناعاتها وتوجهاتها. بعد ذلك تقوم بالرحلات الرمزية وتتلقى بانتظام النور والتعليم ثم تؤدي اليمين، لكي

يُعترف فيما بعد بصفتها أختاً من قِبل مجمل الاخوة الحاضرين وتصبح بذلك عضواً ناشطاً في المشغل. فبعد أن تكون قد حصلت على المسارة بصورة منتظمة ترفَع إلى ثاني درجة فثالث في اليوم نفسه، إنه أسلوب كان شائعاً في تلك الحقبة. وأخيراً قُدمت لها باقة من الأزهار البيضاء ووشاح المعلم المزيَّن بغصن من الأكَاسيا يحمل كلمة إهداء «إلى الأخت ماريا دوريسم».

هَنَّأ «المعلم الجليل» هوبرون (Houbron) المسارية الجديدة لأنها اجتازت بحزم حواجز الماسونية التي تركتها الآن مشرَّعة أمام النساء الأخريات، مشيراً إلى أن غياب النساء عن المحافل الماسونية هو أسلوب بالٍ، وأضاف أن المجتمع لن يمكنه أن يتقدم دون مساهمة المرأة، هذه المرأة التي هي المربية الأولى للطفل. وبدعوتنا لها إلى مشاركة الماسونية قد نصونها من الأخطاء التي تنجم عن الجهل.

لقد كان خطاب الأخت دوريسم الأكثر نجاحاً والأكثر تشرباً بقناعاتها النسوية. فبدأت بتوجيه شكرها إلى المحفل الذي منحها مسارة شبيهة بتلك التي يحصل عليها الأخوة الرجال، وأملت بأن لا يغلق الباب وراءها مرةً ثانية. إن مبدأ إقصاء الإناث لا يستند إلى أية حجة وجيهة. مضيفة أن المرأة لديها عقل يجب أن يتطور، ولا يحق لأي إنسان في العالم أن يقيد ممارستها لقدراتها. فالمرأة هي قوة تكمن أهميتها الأولى في كونها أُمّاً تدفع إلى حب السلام وكره الحرب. واختتمت خطابها بنشيد المرأة التي في إمكانها أن تقدم الكثير للماسونية وتجعلها مثمرة أكثر.

لقد كان جورج مارتان الخطيب الأخير في الاحتفال الساهر هذا. نظراً لأنه مناصرٌ معروفٌ لقضية المرأة فقد اختار أن يذكِّر

بدور ماريا دوريسم في الحياة العامة، وبإلقاء الضوء على النضالات التي دفعتها إلى التحرك منذ عدة سنوات وليذكّر أيضاً بالمعركة التي خاضاها معاً من أجل انعتاق النساء. فأمام الحشد الكبير من الماسونيين اختار أيضاً الدفاع عن محفل «المفكرين الأحرار»، والإشادة بالمرأة الماسونية. وعرض الصعوبات التي واجهت المحفل الذي كان قد خرق الممنوع. كان يتوجه إلى المشاركين ليس كنائب في «المحفل الرمزي الإسكُتلندي الكبير» ولا كعضو في اللجنة التنفيذية بل باسمه الشخصي فقط. فهنّأ المحفل على قراره ومبادرته وقدوته وشجاعته، وذكّر بثورة الأخوة ضد سلطوية «المجلس الأعلى للطقس الإسكُتلندي» الذي يرفض استقلالية المحافل. وأمل بأن يكون لهذا المثال تتمة. واختتم كلامه بالقول: «إن المستقبل يمتلكه رجالات التقدم، وأنتم منهم، فالمستقبل هو لكم، للماسونية المختلطة التي قمتم ببنائها للتو».

إن مسارّرة ماريا دوريسم هو عمل «ثوري»، إلا أنه تحقق بفضل محفل نظامي كانت له الجرأة على خرق مبدأ «اللانساء».

الفصل الثالث

من المحفل المختلط الأول
إلى المنظمة الماسونية المختلطة الدولية

كان لا بدَّ من انتظار أحد عشرٍ عاماً كي يرى المحفل الأول «للحق الإنساني» النور، ولم يتحوّل المحفل المختلط «الحق الإنساني» إلى «المنظمة الماسونية المختلطة الدولية» إلاً عام 1901. فبعد وفاة ماريا دوريسم، كان لجورج مارتان الدور في إعطاء هذا المحفل مكانة التابعية (1896) ثم مكانة المنظمة الماسونية (1901) وفي فرضها على القوى الماسونية الأخرى.

1 ـ جورج مارتان

إن هاتين الشخصيتين المقدامتين: ماريا دوريسم وجورج مارتان، قد ناضلتا في القرن التاسع عشر، الذي كان في أوج التحول، وذلك من أجل الاعتراف بالرجل وبالمرأة، وحيث صبَّتا جهودهما للبرهنة على التكامل بين الجنسين.

ولد جورج مارتان في 9 أيار/مايو من عام 1844 في باريس، وهو من عائلة يعود أصلها إلى سولونيه «Sologne»

[منطقة وسط فرنسا]. أما والده الذي كان صيدلانياً في باريس فقد أمل أن يسير ابنه على خطاه. لذلك عهد بتعليمه إلى اليسوعيين في شارع لومون «Lhomond»، إذ كان تلميذاً لامعاً، وبدا ذا شخصية حادة عنيدة لكن معلميه قلقوا لأنه كان مشاكساً.

بالفعل لقد اهتمَّ جورج مارتان وهو في أول فتوته بالأفكار الجمهورية، الأفكار التي لا تتوافق أبداً مع تفكير معلميه في مرحلة كانت تعيش فرنسا تحت حكم النظام الإمبراطوري لنابليون الثالث (Napoléon III). منذ حداثته كان يتردد إلى الاجتماعات العامة ليعبِّر فيها عن أفكاره ومن صلبها فكرة المساواة بين الرجل والمرأة.

بعد نيله البكالوريا الأدبية عام 1861 ثم العملية عام 1863 تكرس لدراسة الطب، والتي تكللت عام 1870 بالنجاح. فمارس مهنة الطب مدة عشر سنين في شارع موفتار «Mouffetard» في باريس. وأصبح هناك ذا شعبية، نظراً لأنه كان يهتم دون ما تمييز بالأغنياء والفقراء، فلم يتردد يوماً في معالجة من يستدعونه دون أن يكترث على الإطلاق بتقاضي أجره.

لقد كان رجلاً على درجة من الأهمية «وأثبت ذلك أيضاً في تطبيقه أفكاره الليبرالية والجمهورية. وفي سنة 1866، أنشأ مصلحة الخدمة الصحية وشارك كرجل إسعاف خلال عدة أسابيع في المعركة من أجل غزو «فينيسي Vénétie»، إلى جانب الجمهوري غَريبالدي في إطار بناء الوحدة الإيطالية».

في عام 1874، انتخب لأول مرة في المجلس البلدي لباريس. وأعيد انتخابه لثلاث دورات مُقبلة. نظراً لكونه من المهتمين بالمشاكل الاجتماعية عيِّن في مجلس الرقابة على مؤسسة الرعاية

العامة حيث اقترح عدة إصلاحات. في تموز/يوليو سنة 1884 انتخب رئيساً للمجلس العام للسين (Seine) [منطقة باريسية] وأصبح بعد عام سيناتوراً لهذه المحافظة.

لقد كان برنامجه جمهورياً اجتماعياً متأثراً بشكل قوي بالبحث عن العدالة والاعتراف بحقوق الرجل والمرأة. وبرهن عن كونه ملحداً عقلانياً مع احترام دقيق لمعتقدات الآخرين. فألَّف كتاباً بعنوان «**فلسفة عقلاني**». غير أنه بقي نقدياً تجاه الأديان التي كان يعتبر أنها ليست سوى انقسام بين الناس. ودافع عن أفكاره من أجل انتصار الحقيقة. هذه الحقيقة التي تسمى بالنسبة إليه العدالة. والعدالة هي المساواة بين الرجل والمرأة، أي ما معناه «الحق الإنساني». وفي موازاة ذلك جرت مساررته في 21 آذار/مارس من عام 1879 في محفل «الاتحاد والإحسان» «للطقس الإسكُتلندي القديم والمقبول». كان مقتنعاً بأن الماسونية لن تصبح فعلاً بناءة إلاّ بإدخال النساء إليها. لقد كان جورج مارتان عقلانياً أكثر منه باطنياً، وبرهن عن تسامحه العميق، مدافعاً عن حرية المعتقد، وحارب التعصب والدوغمائية.

لقد حاول في البداية تطوير الماسونية الذُكورية بمشاركته في بناء «المحفل الرمزي الإسكُتلندي الكبير» عام 1880 حيث تسلم بعض المسؤوليات. ثم أمل طويلاً في أن تشرع المحافل الذُكورية بمساررة النساء. ولكن بعد المشاكل التي أثارتها مساررة ماريا دوريسم في محفل «المفكرين الأحرار» في شرق مدينة بيك «Pecq» أدرك هو أن عليه القيام بشيء جديد. لقد عمل من أجل ذلك بدون توقف. وتفوق على جميع الصعاب بفضل تصميمه وإرادته.

ولو أن ماريا دوريسم كانت المساررية الأولي بجعلها تأسيس المحفل المختلط «الحق الإنساني» أمراً ممكناً إلاّ أن جورج مارتان ساهم فعلاً في خلق «المنظمة الماسونية الدولية المختلطة». إنه لم يرغب يوماً في تسلم الإدارة بصفة «المعلم الأكبر»، ولكنه كان ذلك الخطيب المفوَّه في المحفل الأول في البداية ثم في المجلس الأعلى فيما بعد. إن عناده أتاح له المحافظة على بنية معيَّنة وبتطويرها والتي كان من الممكن أن تزول لولا كفاءاته التنظيمية. إذ إن ماريا دوريسم توفيت في شباط/فبراير عام 1894، أي بُعيد مرور سنة على تكوين «المحفل المختلط الأول»، فكان عليه أن يواجه عداء التابعيات الذُكورية القليلة الاستعداد للاعتراف بنشوء بِنية ماسونية حيث للمرأة مكانة مساوية للرجل. لم تكن الأحكام دائماً إيجابية تجاه جورج مارتان. دون أدنى شك، لقد كانت صلابته تصل إلى حد العناد وشخصيته القوية أدت به أحياناً إلى اضمحلال القدرة على تحمل الجدال. فارتكب بالتأكيد بعض الأخطاء، ولكن لم يكن في استطاعة أحد أن ينكر عمله الدائب سواء بصفته الدنيوية أم بصفته الماسونية من أجل الدفاع عن حقوق المرأة والعدالة الاجتماعية. ففي إطار مسؤولياته كمنتخَب طالَبَ بالحقوق السياسية للمرأة عام 1909 ولكن بدون طائل، وسنة 1912 حاول الحصول على المساواة بين الجنسين في أجور التقاعد للعاملات. كما اقترح من خلال مهماته كعضو في المجلس الأعلى للرعاية العامة تحسين الرعاية الصحية في المناطق الريفية ورعاية الأشخاص المسنين من جانب الدولة بطريقة أفضل. وأصبح مدافعاً بدون منازع عن الديموقراطية.

في عام 1889 تزوج من ماري ـ أوجيني لينيه (Marie Eugénie Lainé) التي شاركته جميع نضالاته. فضلاً عن ذلك، فقد

أصبحت «المعلم الأكبر» الأول للمنظمة عام 1903 تحت اسم ماري ـ جورج مارتان (Marie-Georges Martin)، وذلك حتى نهاية حياتها في عام 1914. لقد كرَّسا حياتهما لخدمة المنظمة وقاما بتشييد المنزل الأم لـِ «الحق الإنساني» في باريس من أموالهما الخاصة بعد أن باعا فندقهما في شارع فوكلان «Vauquelin» وملكيتهما في سولونيه.

ما زال حتى اليوم المبنى المشيد في 5 شارع جول بروتون (Jules - Breton) هو مركز «الماسونية المختلطة الدولية ـ الحق الإنساني» ومجلسها الأعلى. حتى اليوم بقي العديد من المحافل الباريسية تجتمع فيه. لقد طلب جورج مارتان أن يُحفر في واجهة هذا الهيكل الجملة التالية: «إن المرأة في المجتمع عليها الواجبات نفسها التي للرجل، ومن العدل أن يكون لها في المدينة الحقوق نفسها». توفي جورج مارتان في هذا المكان نفسه في الأول من تشرين الأول/أكتوبر سنة 1916.

2 ـ تطور المحفل المختلط

إن مساررة ماريا دوريسم في 14 كانون الثاني/يناير 1882 كان يمكن أن تبقى معزولة لو لم يتبعها في 4 نيسان/أبريل من عام 1893 إنشاء المحفل الرمزي الإسكُتلندي الكبير لفرنسا «الحق الإنساني». أما جورج مارتان الذي حضر مساررتها فلم ينفك عن المطالبة بمساررة النساء، فكان يشير في أقواله إلى دورهن في المجتمع وخاصة داخل العائلة وفي تربية الأولاد.

لم تتمكن ماريا دوريسم من حضور أي اجتماع ماسوني (اجتماع محفل). لقد كان ذلك مؤسفاً، ولكن لم يكن متوقعاً أن تتوجه نحو محافل التبني حيث النساء ليست على القدْر نفسه من

المساواة مع الرجال؛ عندئذٍ توصل جورج مارتان سريعاً إلى فكرة تكوين محفل مختلط، فأخذ منذ سنة 1882 يزور العديد من المشاغل ويشرح فيها أفكاره حول المساواة بين الجنسين. في كانون الثاني/يناير عام 1890 اتصل بالتابعيات الماسونية الموجودة وعرض عليها مشروعه لخلق محفل مختلط، فكان الرفض عاماً وقاطعاً. رغم ذلك واصل مسعاه. في 13 حزيران/يونيو 1890 قام مع محفل «القدس الإسكُتلندي» حيث هو في منصب «الجليل» الفخري بتبليغ «المحفل الرمزي الإسكُتلندي الكبير» عن احتمال إنشاء محفل مختلط قد يكون اسمه المخصوص هو «حق النساء». أَبدى بعض مشاغل التابعية التي تمت استشارتها بصورة إفرادية اهتماماً بالموضوع؛ إلاً أنه في 17 حزيران/يونيو من السنة التالية رفضت اللجنة التنفيذية لِـ «المحفل الرمزي الإسكُتلندي الكبير» رسمياً الطلب. فلم يعد هناك عندها سوى سبيل واحد هو طريق الإقدام والثورة. وكانت هذه هي الطريق التي اختارها جورج مارتان الحريص رغم كل شيء على تجنب أي انشقاق أو إثارة أية منافسة. من أجل تكوين محفل مختلط كان يجب توافر أعضاء مؤسسين ومن بينهم نساء قد حصلن على المساررة الماسونية. فمنذ أول حزيران/يونيو 1892 وخلال اجتماع انعقد عند ماريا دوريسم في 72 ـ شارع كاردينه «Cardinet» [في باريس] بوشر بمسار البناء وصولاً إلى 4 نيسان/أبريل 1893. وخلال اجتماعات لاحقة أخرى جرت في 17 و24 آذار/مارس وأول نيسان/أبريل 1893 تحقق تكوين المحفل المختلط الأول.

إن القضية لهامةٌ جداً. لذا حصلت 16 امرأة دنيوية [جاهلة لأسرار الدين] على المساررة في آذار/مارس ونيسان/أبريل من السنة نفسها، ثم رقين إلى ثاني درجة فثالث درجة. وأصبحن مع

جورج مارتان البانيات لِـ «الحق الإنساني». إننا نذكر من بينهن بعض الأسماء مثل ماري ـ جورج مارتان وهي «المعلم الأكبر الأول»، وماري ـ بيكيه دو ڤيين (Marie Béquet de Vienne)، التي قامت بأعمال خيرية مميَّزة لمساعدة الأطفال؛ وكليمنص روايبه (Clémence Royer) العالمة المعروفة بترجماتها لأعمال داروين؛ ولويز دافيد (Louise Davie)، الأديبة الشهيرة؛ والنسوية ماريا بونيون (Maria Pognon)؛ ومنذ عام 1894 التحقت بهن ماري بونفيال (Marie Bonnevial)، الأستاذة العلمانية التقدمية والمناضلة من أجل حركة نقابية تعليمية مستقبلية. بالفعل كانت جميع هذه النساء ملتزمات بالنضال الاجتماعي وبحماية الجمهورية. لقد تكونت أفكار هذه النساء في حركة نضالية ناشطة مما أعطاهن تجارة غنية وذلك من أجل الانطلاق في مغامرة من هذا النوع ألا وهي تكوين محفل مختلط.

أثناء اجتماع 4 نيسان/أبريل، أعلنت ماريا دوريسم أنها «تؤسس المحفل الإسكُتلندي الكبير ـ الحق الإنساني المفتوح للجميع دون تمييز في الجنس والدين والعرق والجنسية». وتخلت عن اسم «حق النساء» واستبدلته «بالحق الإنساني» الذي يشمل كل البشرية؛ ولعلها استلهمت هذا الاسم من النشرة التي صدرت في المحفل التجريبي لعام 1860 «هيكل العائلات»، الذي سبق أن استخدم هذه العبارة.

في اليوم نفسه، أعلن جورج مارتان أنه يرغب في الانتساب إلى المحفل الجديد (أي أنه يرغب في أن يسجل على لائحة الأعضاء)، وتعين مجمع الأحبار الذي تحدد موعد تأسيسه في شهر تشرين الثاني/نوفمبر. لقد كانت ماريا دوريسم هي «المعلم الجليل»، بينما احتلت كليمنص روايبه منصب الجليلة الفخرية. وهكذا ولد «الحق الإنساني».

في أيار/مايو 1893 سلَّم جورج مارتان السين [منطقة باريسية] نص دستور «المحفل الرمزي الإسكُتلندي لفرنسا ـ الحق الإنساني». وكان يتضمن 40 مادة مسبوقة بإعلان للمبادئ. إن «المحفل الرمزي الإسكُتلندي الكبير لفرنسا ـ الحق الإنساني» يقر «بتأسيس هيكله الماسوني على مبدأ التفكير الحر والأخلاق والتضامن والعدالة الاجتماعية». وعلى أعضائه «نشر هذه الأفكار». هذا الدستور لا يتعلق إلاّ بفرنسا، بالتالي فهو يؤكد أنه سيتم السعي إلى إنشاء محافل «في المحافظات وأينما يوجد فرنسيون على الكرة الأرضية». فسريعاً ما أنشئت عدة محافل وبصورة خاصة في ليون وروان والهافر [مدن فرنسية] وزوريخ [في سويسرا].

إن التابعية الجديدة هي محفل كبير (اتحاد محافل)، وبصفتها تلك فهي لا تجمع سوى محافل رمزية أو مشاغل زرقاء من الدرجات الثلاث الأُوَل. غير أنه قد تركت لأعضائها الحرية في دخول مشاغل من الرتب العليا. وعهد بإدارتها إلى أحبار المحفل الكبير المنتخبين بالاقتراع العام لمدة خمس سنوات. وتتم مراقبتهم من قِبل مجلس مراقبة يعيَّن سنوياً في شهر تشرين الثاني/نوفمبر ويتألف بجزء منه من المحفل الكبير وبجزء آخر من المشاغل (منتخب واحد لكل شريحة من 50 عضواً). إن أنماط المساررة وتلك المتعلقة بتكوين المحافل ودور الأحبار هي محددة بشكل واضح في الدستور. ولكي يؤكد «الحق الإنساني» مدى رغبته في الانخراط ضمن الطائفة الماسونية أقرَّ لأعضاء التابعيات الذُكورية بحق زيارته بدون أي شرط سوى إثبات صفتهم الماسونية ورتبتهم.

لقد حصل التغيير فيما بعد بصورة سريعة. ففي نيسان/

أبريل 1896 تمَّ اعتماد الدستور والأنظمة العامة «للمحفل الرمزي الإسكُتلندي الكبير ـ الحق الإنساني» (التابعية المختلطة ـ التشريع العالمي) في اجتماع المحفل الكبير، وقد نشر في 7 أيار/مايو من السنة نفسها. إننا نشير هنا إلى بعض النقاط الجديدة. الاختلاط والصفة الدولية يظهران في اسم المحفل. تكوين مجلس أعلى مؤلف من المجلس الإداري للمحفل الكبير (مجمع الأحبار) ومن مجلس المراقبة، لفض النزاع بين البنيتين في حال وقوعه. بالإضافة إلى ذلك يتضمن الدستور مَوادَّ تتناول السلوك الماسوني.

3 ـ تكوين المنظمة الماسونية المختلطة الدولية

شرعت المحافل تفتتح سنة تلو أخرى، لكن «الحق الإنساني» بقي هامشياً في الماسونية. فالاختلاط لم يكن مقبولاً من قبل الطائفة الماسونية، خصوصاً أن التابعية الجديدة لا تتناسب مع القواعد التي تحددها الدساتير الكبرى (الجمعية العمومية الماسونية لمدينة لوزان «Lausanne» السويسرية في عام 1875). لقد كان جورج مارتان مدركاً كل ذلك، ويعلم جيداً مدى أهمية الحصول على الاعتراف بهذه المنظمة؛ كما رأى أنه يجب الأخذ بخبرة الماسونية الذُكورية المكتسبة خلال القرنين الماضيين. لقد فهم أنه من المفيد إتمام ما كان قد تأسس عامي 1893 و1896، أي دمج مشاغل الرتب العليا. في 11 أيار/مايو عام 1899 وفي 51 ـ شارع كاردينال لوموان «Cardinal-Lemoine» في باريس، منح «الأخ الرفيع التأليق جوزف ديسمبر (Joseph Décembre) المعروف بـ ديسمبر ألونيه (Décembre Alonnier)»، الدرجة 33 لعشرة أعضاء «من الحق الإنساني» ومنهم جورج مارتان. وقد ترأس بنفسه

المجلس الأعلى الأول هذا حتى عام 1903. في 11 أيار/مايو 1901 تمَّ نشر دستور «المنظمة الماسونية المختلطة الدولية ـ الحق الإنساني». لقد ظلَّ هذا الاسم التمييزي اسماً خاصاً بالتابعية. بين عام 1901 و1914، تمت مراجعة هذا النص أربع مرات من قِبل المجلس الأعلى، ولكن تركت بعض النقاط العالقة، مثل مسألة مكانة الكيانات الوطنية. في هذه المرحلة أصبح التوطن الدولي «للحق الإنساني» مؤكداً (في بريطانيا العظمى، والهند والولايات المتحدة الأميركية وهولندا وإيطاليا إلخ). ووضع الدستور العام لسنة 1901 جميع المشاغل تحت سلطة «المجلس الأعلى الدولي» الذي يُعيِّن أعضاؤه لمدى الحياة ويجتمعون في باريس. ومن ثم يسمّي هذا المجلس في كل بلد ممثلاً مكلفاً بتأمين الارتباط والحرص على التطبيق الصحيح للدستور والأنظمة.

إن دستور عام 1901 يحدد مشاغل الرتب العليا (مجلس الأحبار، المجامع، المحاكم من الدرجة 31، المجامع القيادية من الدرجة 32) والتي يؤمِّن إدارتها في كل بلد مجمع قومي. بين أعوام 1901 و1911 تَثَبَّتَ التوسع الدولي، كما أنه في السنة الأخيرة تمَّ التأكيد على إمكانية تكوين مجلس وطني يجمع كل الماسونيين من الدرجات 31 و32 و33 في البلد الذي يكون فيه عدد المشاغل كافياً. هذا المجلس يحتفظ محلياً بالسلطة التنفيذية بينما تبقى لـ «المجلس الأعلى» وحده السلطة التشريعية. لقد كان تقدم المنظمة بالفعل وفي الوقت نفسه طرحت بعض الأسئلة الجديدة وخاصة حول إمكانية الجمع بين المؤتمر والجمعية العمومية الماسونية. وهكذا أُعلن في السنة المذكورة أنه من المفيد التفكير في عقد جمعية عمومية دولية وتمَّ اقتراح تاريخين لهذا الاجتماع هما: أيلول/سبتمبر 1914 أو العام الذي يليه. وسيكون الموضوع عندها هو كتابة دستور «ليس مصاغاً فقط من قِبل

فرنسيين». إن الحرب العالمية الأولى لم تسمح بهذا اللقاء في التاريخين المتوقعين. فانعقدت الجمعية أخيراً في عام 1920.

إن «المنظمة المختلطة الدولية ـ الحق الإنساني» لم تتكوَّن دفعة واحدة، بل أنها تكوَّنت على مراحل وعلى مدى زمني قصير نسبياً. لقد بقي عليها أن تتطور وتتثبت بين عامي 1893 و1901.

4 ـ استجابة العالم الماسوني

احتاجت التابعية الماسونية الجديدة لكي توجد فعلاً أن تكون جزءاً لا يتجزأ من الطائفة الماسونية، بالتالي أن تحصل منها على الاعتراف بها. هذا الأمر لم يكن سهل المنال بالنسبة إلى «الحق الإنساني» الذي اختار الاختلاط والصفة الدولية وتطبيق المساررة المتواصلة. لقد قلبت العادات، فحصلت التابعية المختلطة وبسرعة على اعتراف «المحفل الرمزي الإسكُتلندي الكبير» بها، الذي كما هو معروف كان قد أعطى مشغله «المفكرين الأحرار» في پيك «Pecq» مساررة لماريا دوريسم.

في عام 1896 انضمَّ جزء من محافل هذه التابعية إلى «محفل فرنسا الكبير». بينما شكَّلت الأخرى الباقية «المحفل الرمزي الإسكُتلندي الكبير والمصان»، وقد اعترف دستوره الذي تمت صياغته بين عامي 1898 و1901 بالاختلاط في المشاغل التي ترغب في ذلك. إن محاولة التوفيق بين التابعيتين التي جرت في 24 شباط/فبراير 1899 قد باءت بالفشل. إلا أنه في 26 أيار من السنة نفسها نظم محفل «ديدرو» اجتماعاً فيما بين التابعيات، حيث قدمت ماري بونيفيال دراسة حول «مهمة المرأة». فبدأ ينشأ نوع من التعاون الذي بلغ حد الازدواجية في الانتماء. وفي 21 حزيران/يونيو 1901 نسب «المحفل الرمزي الإسكُتلندي الكبير

والمصان» إليه خمس أخوات من «الحق الإنساني» هن: ماري بونيفيال، ڤيرا ستاركوف، ألين ماركس، ماري وجيني بيليو Marie Bonnevial, Vera Starkof, Aline Marx, Mary et Jenny) .(Billioud

إن زوال «المحفل الرمزي الإِسكُتلندي الكبير» قبيل عام 1914، جعل كل المحاولات السابقة بلا طائل. لقد وقعت التابعيتان الفرنسيتان الكبيرتان «الشرق الكبير لفرنسا» و«المحفل الكبير لفرنسا» في الحيرة والعجب. فمسألة المرأة في الماسونية كان لا بدَّ أن تستدعي جواباً منهما. لقد جاءت مواقفهما وردة فعلهما مختلفة.

في «الشرق الكبير لفرنسا» وفي 29 أيار/مايو 1899 جاءت الصدمة من طلب للقبول قدمته امرأة هي أملي جيدالج (Amélie Gédalge) إلى محفل هذه التابعية «الوحدة الماسونية»... مما فتح باب الجدل في داخلها، هذا الجدل الذي كان إلى حد ما حاداً، وانتهى برفض مجلس المنظمة لهذا الطلب. هل كان هذا الرفض هو الفرصة الضائعة أم أنه ردة الفعل الطبيعية بالنسبة لتلك الحقبة؟ هذا أمر لا يمكن الجزم به. فمن الظاهر أن «المحفل الكبير لم يكن جاهزاً بعدُ».

لقد جرى نقاش المسألة مطولاً أثناء الجمعيات العمومية المنعقدة في أعوام 1900 و1901 و1902. لقد سمحت محاضر الجمعيات برؤية تنوع الاستجابات. على هذا النحو صرَّح «الأخ» غيبومو (Guillemot) عام 1902 بقوله: «أنا من جهتي مناصر شديد لانعتاق النساء، وإنني أعتبر أن السعي إلى الانعتاق هو هدف يجب على الماسونية متابعته».

أما على الصعيد العملي، فإن العديد من مشاغل «الحق الإنساني» لم تتمكن من إيقاد شعلتها لو لم تتلقَّ الدعم من الأخوة في «الشرق الكبير». إلا أن الاعتراف الرسمي بـ «الحق الإنساني» الذي اقترحه «الأخ» بويسون (Buisson)، عام 1901 لم يؤخذ القرار به إلا في 21 أيلول/سبتمبر 1921، عندما صوَّتت الجمعية العمومية لـ «الشرق الكبير» على توقيع الاتفاقية مع «الحق الإنساني».

أما فيما يتعلق بـِ «محفل فرنسا الكبير» فإن الوضع كان مختلفاً. لقد تكوَّنت هذه التابعية سنة 1894، وذلك بعد الأحداث المتتالية التي وقعت إثْرَ إنشاء «المحفل الرمزي الإسكُتلندي الكبير». إذن توجب أولاً بناء التابعية الجديدة التي أضيف إليها عام 1896 عدد من محافل «المحفل الرمزي الإسكُتلندي الكبير». بين عامي 1898 و1901 ظلَّ المجلس الأعلى لفرنسا صامتاً، ولم يصدر عنه أي موقف رسمي. لكنه لا يستطيع أن يتجاهل ما كان يجري في العالم الماسوني، خصوصاً الاجتماعات فيما بين التابعيات المختلطة التي تمَّ تنظيمها عام 1901. أما الحدث الاحتفالي فقد جرى بالضبط في تلك السنة: لقد أصبح افتتاح محافل التبني مسموحاً به، وأولها هو «الامتحان الحر» والذي أُوقدت شعلته في 29 أيار/مايو 1901.

إن دستور عام 1906 قد حدد أنظمة محافل التبني هذه. وكان يجب إقناع النساء بفكرة عدم الدخول في المحفل المختلط، إذ أن «محفل فرنسا الكبير» يريد احترام القواعد الثابتة [أو لاند مارك، القديمة المحددة للتقاليد والأعراف]: إنها لقواعد مقدسة كانت إحداها قاعدة «اللانساء»، والتي تبقى رغم ذلك انتهازية إلى حد ما.

الفصـل الرابـع

المـبـادئ التأسيسيـة

إن «المنظمة الماسونية المختلطة الدولية» المكوَّنة عام 1901 قد وجدت في «الدستور الدولي» قواعدها النهائية وذلك عام 1920. وبذلك تثبتت المبادئ الدستورية التي خضعت لها المنظمة. إن «الحق الإنساني» المؤلف في معظمه من المشاغل التي تعمل بحسب الطقس الإسكُتلندي القديم والمقبول سمح بتطبيق الطقس الإنكليزي بعد بعض التعديل، وذلك استجابةً للصفة الدولية في أنظمته. تميَّز هذا المحفل عن سواه داخل الماسونية بالمساررة المتواصلة.

1 ـ الجمعية العمومية لعام 1920

تقرر سنة 1912 عقد جمعية عمومية تجمع كل مشاغل المنظمة في شهر أيلول/سبتمبر عام 1914، وذلك من أجل تبني دستور دولي. وكان يجب أن تتزامن هذه الجمعية مع تدشين الهيكل في 5 ـ شارع جول بروتون «Jules-Breton» في الدائرة الثالثة عشرة من باريس، الذي كان سيجري في أيلول/سبتمبر عام 1916، وذلك قبل أسبوعين من وفاة جورج مارتان الذي تبرع

بتكاليف هذا المشروع. وبسبب الحرب لم تنعقد الجمعية العمومية الدولية في باريس إلاَّ في آب/أغسطس عام 1920.

وقد وجَّه هذه الدعوة أوجين بيرون (Eugène Piron) «المعلم الأكبر» في المنظمة التي كان يترأسها. أما المهمات الباقية فتوزعت بعد التصويت على مندوبي البلدان الأخرى. هذه الجمعية العمومية الأولى تجمع مندوبين من الدرجة 33، أي الدرجة الأخيرة من الماسونية المختلطة. فكانت المنظمة آنذاك تحوي على أكثر من 300 مشغل في فرنسا والولايات المتحدة الأميركية وهولندا وإيطاليا وبريطانيا وسويسرا. لقد كان الموعد تاريخياً: فقد سجل منعطفاً رئيسياً في وجود المنظمة وشكَّل مرحلة حاسمة في إشراقها ولحظة مميزة في وجود «الحق الإنساني». لأول مرة يجتمع مندوبون قادمون من بلدان بعيدة يتكلمون لغات مختلفة ولديهم آراء دينية وفلسفية وسياسية متباعدة أحياناً. لقد وضعت الأعمال تحت رعاية ماريا دوريسم وجورج مارتان. وكانت المناقشات تدور حول مشروع الدستور الذي صاغه هذا الأخير وقَبله «المجلس الأعلى» لتلك الحقبة. لقد درسوا مسائل مختلفة تتعلق بالمنظمة. فكانت المناقشات الطويلة ضرورية لإرساء قواعد جديدة. وهكذا أخذت مواد الدستور تتشكل دعامةً بعد أخرى، وجاءت على صورة الهيكل المفتوح على القبة السماوية؛ أي حيِّز الأحلام، بل حيِّز التفكير والحكمة أيضاً. ولقد جرى انتخاب رئيس «الاتحاد الأميركي» لويس غوازيو (Louis Goaziou) ليدير لجنة الدستور. فساهم بصورة كبيرة في صياغة الوثيقة المؤهلة للتكيف مع حداثة الأزمنة، وراعى في الوقت نفسه القواعد الماسونية كي تَجمع تحت راية واحدة ماسونيي «الحق الإنساني».

تخلى «المجلس الأعلى» عن السلطة التشريعية التي أصبحت

بعدئذٍ بيد الجمعية العمومية الدولية. ولكنه احتفظ بالسلطة التنفيذية للمنظمة. فأصبح الحارس للدستور الدولي والأنظمة العامة؛ مثلما أصبح الحجر الأساس لهذا البناء وهو القوة المولدة والمنظمة والحامية، كما أنه يشكِّل الحكومة العليا لجميع مشاغل «الحق الإنساني». فأداؤه وصلاحياته وامتيازاته هي محددة، وكذلك سلطات الأعضاء المنتخبين بصورة دائمة وأعدادهم (من أصل 33 عضواً كان هناك على الأقل 9 فرنسيون). ولم يصبح الأعضاء منتخبين لسنوات سبع وقابلين لتجديد انتخابهم سوى في العام 1934.

في إعلان المبادئ أكدت المنظمة المساواة بين الرجل وبين المرأة، كما أكدت المواصلة المساررية. إن المبادئ وطريقة العمل هي تلك الخاصة بالدساتير الأيكوسية الكبرى لعام 1786 المعدلة في اجتماع لوزان عام 1875. لقد أصبحت حرية الإيمان بأبدية الحياة الروحية أو بلاأبديتها مسألة مقبولة. فقُدِّم للأعضاء طريقان أحدهما أكثر روحانية والآخر أكثر عقلانية. وتعين المركز الرئيسي في باريس 5 ـ شارع جول بروتون.

في هذه المدينة أخذت تنعقد الجمعية العمومية الدولية كل سبع سنوات وبحضور كل المشاغل. وكانت اللغة المستعملة الفرنسية، واستخدمت الإنكليزية أيضاً «ابتداءً من سنة 1947». ولكن تقرر عندها أن يبقى النص الفرنسي هو المرجع في حال حصول اعتراض ما، وأنه وفي جميع الوثائق ستتبع كلمات «الماسونية المختلطة» بكلمات «الحق الإنساني» وذلك باللغة الفرنسية. وتمَّ إقرار رسم مالي سنوي وإعداد كُرَّاسة ماسونية. كما أُبقي على النشرة التي هي وسيلة الارتباط بين الجميع. ووُضع أيضاً دليل للمشاغل في عام 1922 وقد أعيد طبعه سنة 1925، ولكن توقف نشره لدواع أمنية.

حددت المادة التاسعة شروط تشكيل الاتحادات والمحافل التشريعية، وكذلك العلاقات التي تقيمها فيما بينها وأيضاً العلاقات بـ «المجلس الأعلى». إن ممثل هذا المجلس هو الوسيط الضروري بين المنظمة الدولية وبين هذا الكيان. إن هذه المادة ذات أهمية بالغة، إذ أخذت على أساسها الماسونية المختلطة انطلاقة جديدة. فنشأ على امتداد سنة واحدة 17 اتحاداً ومحفلاً تشريعياً. حققت هذه المادة لفرنسا على وجه الخصوص تغييراً هاماً، فالدستور السابق لم يكن يمنح حق تشكيل المنظمات القومية. فتنظمت بسرعة محافل فرنسا والمستعمرات وتبنيَنت على مستوى فيدرالي. وتشكل الاتحاد الفرنسي في 30 و31 تشرين الأول/أكتوبر 1921 خلال الجمعية العمومية الوطنية. وبدأ بالعمل بتاريخ أول كانون الثاني/يناير 1922. لقد جرى التصويت بالإجماع على «الدستور الدولي». فطلب «الأستاذ الأعظم» أوجين بيرون من جميع الماسونيين الحاضرين أداء القسم على النص الدستوري جهاراً. أعطت الجمعية العمومية في عام 1920 لـِ «الحق الإنساني» دفعاً جديداً وبُعداً دولياً رسمياً. ولقد تحددت الجمعية التالية في عام 1927 طبقاً للدستور. فهي سوف تنعقد على مستوى رتبة الأستاذ مما سيسمح لعدد أكبر من الماسونيين بحضور الاجتماعات كزائرين.

ومنذ عام 1997 أخذت الجمعية العمومية تنعقد كل 5 سنوات. وكانت الوقائع تترجم فورياً بالفرنسية والإنكليزية والإِسبانية.

2 ـ المبادئ الدستورية

إن الميزة الكبرى لـِ «الحق الإنساني» تكمن في الإرادة الإنسانية لمؤسسيه. فمنذ القرن الثامن عشر تطورت الماسونية

لتستجيب لأهداف أعضائها سواء في اتجاه مساراري وروحي أم في مسعى إنساني واجتماعي بل وسياسي. لكن «الحق الإنساني» ليس ثمرة تصور معيَّن، إنه كيان حقيقي تطبَّق فيه البِنى والنماذج المثالية الماسونية معزِّزةً المبادئ التأسيسية لهذه التابعية الجديدة.

لقد أسس جورج مارتان وماريا دوريسم «الحق الإنساني» من أجل تطبيق المبادئ التي شكَّلت الدافع لكل مسعاهم وهي: المساواة بين البشر، إنه التسامح الحقيقي الذي لا يمكن أن يُبنى إلا على العلمانية.

عندما صاغ جورج مارتان مشروع الدستور، الذي سوف يخضع لموافقة الجمعية العمومية الدولية الأولى عام 1920، عرض بوضوح هذه المبادئ ذات الأولوية في المادة الأولى:

«إن المنظمة الماسونية المختلطة الدولية تؤكد المساواة الفكرية غير القابلة للنقاش بالنسبة له بين البشر رجالاً ونساءً، وبمناداته بِـ «الحق الإنساني» فإنه يرغب في أن يتوصل الجميع وفي كل الأرض إلى التمتع وبتساو بالعدالة الاجتماعية، وذلك في إنسانية منتظمة وفق مجتمعات حرة أخوية ومسالمة».

«يتألف «الحق الإنساني» من ماسونيين من الجنسين مجتمعين بأُخُوَّة ودون ما تمييز في العرق أو الدين أو الفلسفة أو الطقوس الماسونية كيما يبنوا هيكلهم من أجل مجد الإنسانية».

«إن أتباع المحفل هذا الذين يحترمون كل المعتقدات المتعلقة بأبدية أو بعدم أبدية الحياة الروحية يسعون على هذه الأرض من أجل تحقيق أقصى ما يمكن من تطور فكري وسعادة مادية ومعنوية لجميع البشر ولكل الأفراد في الإنسانية المنتظمة بصورة أخوية»[1].

واليوم، تبقى هذه المبادئ الدستورية هي نفسها رغم تطور الكلام والاستعمالات. فالدستور الدولي لعام 1997 كما لعام 2002 يعيد تأكيد المبادئ نفسها.

وإذا كان تطبيق هذه المبادئ التأسيسية مفروضاً في كل نشاطات أعضاء المنظمة فعليه أن يُمارِس بالدرجة الأولى في النشاط الماسوني نفسه. والمساواة بين الجنسين في تابعية مختلطة هي أمر مفروغ منه، حتى ولو كان التكافؤ هو بنسب معاكسة لتلك العائدة للعالم السياسي: «فالحق الإنساني» يتكوَّن من النساء بنسبة أكبر من الرجال، ومن الملاحظ أن تقاسم المسؤوليات على جميع المستويات يجري بالنسب نفسها: فعلى الصعيد العملي تغدو المساواة حقيقية. والمساواة في دخول الرجل أو المرأة إلى الماسونية هي اليوم مبدأ معترف به في جميع التابعيات تقريباً، على الأقل في فرنسا. وحتى لو لم تطبقه جميعها إلاَّ أن بعضها خصوصاً «محفل فرنسا الكبير» يسمح لمحافله باستقبال الأخوات «بشكل زيارة».

أما المبدأ الثاني الأساسي، وهو مبدأ التسامح، فإنه في «الحق الإنساني» يطبَّق بصورة فريدة وكاملة على صعيد حرية التفكير. في الحقيقة، إن الماسونية الحديثة ونتيجة تطورها تشهد تنوعاً كبيراً من حيث مراجعها الروحية. وهي منذ نشأتها في أوائل القرن الثامن عشر تقرُّ بمبدأ الخالق الذي هو سماوي للبعض ورمزي للبعض الآخر، إنه «مهندس الكون الأعظم». هذا التصور المتشدد للعلمانية هو الذي أدى وفي سياق المواجهة القاسية التي انتهت عام 1905 بفصل الكنيسة عن الدولة إلى تخلي «الشرق الكبير لفرنسا» عن الالتزام بهذه المرجعية التي تعود إلى عام 1877 (في السنة المذكورة إن الرجوع إلى «المهندس الأعظم

للكون» ألغي بكل بساطة من دستور «الشرق الكبير لفرنسا»). فاليوم لم تعد بعض التابعيات تستخدم التضرع لهذا المبدأ الروحي، والبعض الآخر حافظ عليه، بل إنه جلعله أحياناً متسماً بالصفة الإلٰهية. فنتيجة طابعه الدولي عرف «الحق الإنساني» جميع هذه التيارات. لقد أدرك باكراً «كيف يعتمد موقفاً متسامحاً علمانياً حقيقياً دون أن يرفض العودة إلى المبدأ الروحي «مهندس الكون الأعظم» تاركاً بذلك للمشاغل حرية الالتزام أو عدم الالتزام به. لقد تبنت الجمعية العمومية الدولية لعام 1927 وبناءً على اقتراح لويس غوازيو «الفارس الأكبر للاتحاد الأميركي»، النص التالي كمقطع أخير في المادة الأولى من الدستور: «نظراً لأن المنظمة تحترم الحرية الكاملة في التفسير فهي تعترف بشعار «المهندس الأعظم للكون» كشعار تقليدي للماسونية»، إلا أن جميع المشاغل كانت تعمل بحسب تصوراتها الفلسفية هي من أجل مجد «الإنسانية» أو من أجل مجد «المهندس الأعظم للكون». بصورة أكثر إيجازاً ومنذ عام 1947، نصت المادة 8 من الدستور على أن: «محافل المنظمة الماسونية المختلطة الدولية ـ الحق الإنساني، تعمل «لمجد مهندس الكون الأعظم» أو «لمجد الإنسانية». ومنذ عام 1976 استبدلت العبارة الأخيرة بعبارة «لأجل تقدم البشرية».

وهكذا في استطاعة كل محفل وعبر تصويت ديموقراطي، اختيار أحد هذين الدعاءين أو الجمع بينهما وهو أمر مألوف. هذا الموقف الليبرالي بالكامل هو التطبيق الدقيق لعدم الدوغمائية التي تتضح في المادة الخامسة: «إن المنظمة الماسونية المختلطة ـ الحق الإنساني، لا تجاهر بأية عقيدة، لا بل هي تسعى إلى بلوغ الحقيقة».

لقد تجسد التوليف بين هذه المبادئ بإدخال عبارة «احترام

العلمانية» في الدستور الدولي أثناء انعقاد الجمعية العمومية الدولية عام 1997. هنا العلمانية هي بمعناها الأكثر اتساعاً: فهي المبدأ الذي تبنى عليه النضالات ضد اللامساواة والإقصاء والظلم، والمبدأ الذي يسمح بتنمية الاستقلالية وممارسة الفكر النقدي لكل فرد. إن العلمانية تكفل بالفعل حيادية الدولة لكي تحترم المنابت والثقافات والأديان وقيم كل فرد دون إعطاء أية امتيازات لأي منها.

وهكذا، ولو بقيت المبادئ الأساسية للمنظمة كما هي، إلا أن نص «الدستور الدولي» يمكنه أن يخضع للتعديل من أجل ضمان توضيح معمّق لهذه المبادئ والتقدم في الأداء الديموقراطي للمنظمة هذه.

3 ـ الطقوس الماسونية المطبَّقة على «الحق الإنساني»

استخدمت الماسونية منذ تأسيسها طقوساً تُبَنين اجتماعاتها وتسمح لأعضائها باجتياز المراحل المتتالية من التدرج المسارري. إن هذه الطقوس لهي عديدة ومتنوعة نظراً لأنها خضعت لتأثير تيارات رمزية وروحية مختلفة بدءاً من «فرسان الهيكل» في جمعية «الصليب الوردي Rose-Croix» مروراً بالقبلانية Kabbale [التفسير القديم للتوراة] والكيمياء القديمة. غير أنها تنبثق جميعها عن مصدر مشترك هو: أخويات البنائين التي أنتجت بدورها طقوس الرفاقية.

إن «الحق الإنساني» ليس هو كبعض التابعيات التي تسمى بصورة شائعة «اتحاد الطقوس». إنه قائم على بِنية كاملة من «الطقس الأيكوسي القديم والمقبول»، حيث تجتمع 33 درجة منه في «المجلس الأعلى» وهو السلطة المساررية الوحيدة للمنظمة بكاملها. بالمقابل، أن الطابع الدولي «للحق الإنساني» دفعه إلى الأخذ بعين

الاعتبار الطقوس المستخدمة خارج فرنسا خصوصاً في الدول التي نمت فيها الماسونية الأنكلوسكسونية. فهو في كل بلد يعطي لأعضاء المنظمة إمكانية ممارسة الطقس الذي يختارونه سواء كان «الطقس الإِسكُتلندي القديم والمقبول» وهو طقس المنظمة العام أم الطقس المستخدم في البلد المعني. ولكن لكي تحتفظ المنظمة بطابعها الكوني وتتأمن لها قاعدة مشتركة حقيقية ودولية بمعزل عن الطقس المطبَّق فإن جميع الإخوة والأخوات يستخدمون نفس الإشارات والملامسات وكلمات الشكر، وذلك بحسب درجة تقدمهم في المنظمة: أي تلك التي حددتها المجالس العليا للعالم بأجمعه في الجمعية العمومية، التي انعقدت في لوزان عام 1875.

أما اليوم، فإن «الطقس الإِسكُتلندي القديم والمقبول» باعتباره الطقس المرجعي لِـ «الحق الإنساني» يطبَّق من قِبل العدد الأكبر من الأعضاء وخاصة في أوروبا. ولكن الطقس الإنكليزي بصيغه المتنوِّعة هو شديد الانتشار في الدول الواقعة تحت التأثير الأنكلوسكسوني.

أ ـ «الطقس الإِسكُتلندي القديم والمقبول»

إن هذا الطقس الذي تبنيَن في بداية القرن العشرين أصبح اليوم الأكثر انتشاراً في العالم. وقد ظهرت معظم درجاته في فرنسا قبل الثورة. كما استكملت وتمَّ تنظيمها من قِبل ماسونيين أميركيين في نهاية القرن الثامن عشر. أما خلال القرن التاسع عشر فإن هذا الجهاز من «المنحى الأيكوسي» المؤلف من 33 رتبة، وهو دعامة الماسونية المسماة «إسكتلندية»، قد عاد إلى فرنسا حيث تطور قبل أن ينتشر في أوروبا وفي كل أنحاء الأرض. في الأصل تظهر «الإِسكُتلندية» كجهاز يحتوي على الرتب العليا بشكل حصري

ولكنها أنشأت بسرعة «طقوساً» للدرجات الثلاث الأولى، وهي طقوس تستلهم من ماسونية «الأنسيان» «Antient» [وهي طريقة طقسية تعتبر تقليدية نسبة إلى طقوس تعتبر حديثة] المعروضة في «الصدمات الثلاث المتميِّزة» لعام 1760. فالدرجات الثلاث الأُوَل ـ المريد والرفيق والأستاذ، تشكل قاعدة الماسونية الرمزية التي غالباً ما توصف بالماسونية الزرقاء. وتطبَّق داخل ما يسمى «المحافل الزرقاء» أو «المحافل الرمزية»، وهذه المشاغل هي الأكثر عدداً في المنظمة. أما الدرجات الثلاثين الأخرى، الرتب العليا، فهي عبارة عن تطور واكتمال الثلاث الأولى. فعند بلوغ الدرجة الثالثة تكون الأخت أو الأخ «الأستاذ» قد وصل إلى الاكتمال الماسوني. لقد قال جورج مارتان وهو الشخصية الرمزية للمنظمة: «يصبح الإنسان ماسونياً تاماً عندما يبلغ مرتبة الأستاذ ولكن لا يصبح ماسونياً مكتملاً إلاَّ [...] عندما يرتقي [...] ببطء كل درجات المنظمة»[2]. إن الرتب العليا تتوزع على أربع مجموعات هي: مشاغل الإتقان من الدرجة الرابعة إلى الدرجة 14 (المشاغل الخضراء)؛ ومجالس البطاركة من الدرجة 15 وحتى الدرجة 18 (المشاغل الحمراء)؛ والمجامع من الدرجة 19 وحتى الدرجة 30 (المشاغل السوداء)؛ والمجموعة الأخيرة التي يُتعارف على وصفها بالماسونية البيضاء فتجمع «أسياد المحاكم» من الدرجة 31؛ والمجامع القيادية من الدرجة 32 وهي تحت سلطة «المجلس الأعلى» من الدرجة 33. تضم الرتب العليا ماسونيي المنظمة الذين يهتمون بالبحث الرمزي وبالتعمق في المسائل الميتافيزقية.

إلاّ أن جميع هذه الرتب لا تطبَّق بالطريقة نفسها. فمعظمها يعلن عنه بكل بساطة والبعض الآخر يمارس في مناسبات احتفال القبول المستخدمة عادةً في مستويات التدرج، والتي هي: 4° و12° و 14° و 18° و 30° و 31° و 32° و 33°...

ب ـ الطقس الإنكليزي

إذا كان «الطقس الأيكوسي القديم والمقبول» يمارس من قِبل معظم أعضاء «الحق الإنساني» في فرنسا والقارة الأوروبية، فعلى عكس ذلك، يُستخدم الطقس الإنكليزي في الغالبية العظمى من المحافل القائمة في الدول الخاضعة للتأثير الأنكلوساكسوني، من الولايات المتحدة وإلى أُستراليا مروراً بالطبع ببريطانيا.

منذ بدء التوسع الدولي لِـ «الحق الإنساني» ظهرت ضرورة أن تُعتمد الاستخدامات الماسونية التي هي قيد التطبيق ولو جزئياً في البلدان التي تكوَّنت فيها المحافل الجديدة. فهذا الإجراء البراغماتي كان ضرورياً لتعزيز اندماج التابعية الفتية المختلطة في قطاعات حيث حضور المرأة في المحافل كان أقله غير معروف بتاتاً، بل حتى كان يعتبر غير ملائم. فكان لا بدَّ كذلك من الأخذ بعين الاعتبار استخدامات وعادات المجتمع الذي يتحدر منه المرشحون المحتملون، والذين كانوا في معظمهم زوجات ماسونيي التابعيات الذُكورية التي تمارس «الطقس الإنكليزي».

وهكذا دمج «الحق الإنساني» فيه هذا الطقس مجرياً بعض التعديلات التي أصبحت ملحة نظراً لقبول النساء، ولكن أيضاً من أجل المحافظة على انسجام عام في استخدام رئيسي للطقس الإسكُتلندي القديم والمقبول خصوصاً بالنسبة للرتب العليا. وبالفعل، فإن «المجلس الأعلى» «الإسكُتلندي» بطبيعته لا يمكنه إلا أن يكون السلطة المساررية الوحيدة التي تدير مجمل الطقوس الممارسة في المحافل الموضوعة تحت نفوذه.

إن الطقس الإنكليزي يظهر وفق «أساليب» مختلفة، وهي مجرد بدائل بالنسبة للشكل الأساسي للطقس. وفي الماسونية

المختلطة إن الأكثر شهرةً هي أساليب «المباراة» و«اليورك» و«اللودردال» و«الفيرولام» وكذلك أسلوب «سيدني» (Emulation, York, Lauderdale, Verulam, Sydney).

أما مميزاته العامة فهي قريبة جداً من خصائص الطقس الإسكُتلندي القديم والمقبول، وخاصيته تتجلى في مرجعية روحية أكثر وضوحاً، أما الترتيب المميَّز للمحفل ومكان الكهنة أو مكان الشمامسة فلم يعد بعضها يستخدم في الطقس الإسكُتلندي القديم والمقبول. إلاَّ أن الخطابات ذات البعد الرمزي والأخلاقي بدت أكثر تطوراً كما أن الاحتفالات كانت تستغرق وقتاً أطول.

إن الرتب الرمزية الثلاث تبلغ نموها في درجات تكميلية خاصة، مثل محافل «مارك Mark»، و«روايال أرك مارينر Royal Ark Mariner» ومجامع «روايال أرش Royal Arch» و«نايتس تامبلر Knights Templar». وفي البلدان التي تستخدمها تُدْرَج في مجمل رتب «الأيكوسية» وذلك مع احتفاظها بفرادتها ضمن احترام التواصل المساري، والتي هي الميزة الأساسية «للحق الإنساني».

ج ـ التواصل المساري

يتميَّز الحق الإنساني عن سواه من التابعيات في سائر أنحاء العالم بالتواصل المساري والمُدْرَج في «دستوره الدولي»: [...] إن «المجلس الأعلى» هو الحكومة العليا للمحافل ومشاغل الإتقان والمجالس والمجامع والمحاكم والمجامع القيادية والمجالس الكبرى من الدرجة 33 والمحافل التشريعية واتحادات المنظمة الماسونية المختلطة الدولية. «الحق الإنساني» لكل بلدان الأرض (المادة 10)»[3].

إن المنظمة بالتطابق مع أسس «الأيكوسية» نفسها هي متبنينة ابتداءً من الدرجة الأولى وحتى الدرجة 33 بدون حلول انقطاعية في الخط المساررِي. بالنسبة لفرنسا إذا كان التسيير الإداري للرتب الرمزية قد فُوِّض به إلى مجلس قومي، وللرتب العليا (من الدرجة 4 وحتى 30) إلى مجمع قومي (وقد تحمل هذه الهيئات اسماً آخر في بعض البلدان) إلا أن «المجلس الأعلي» كان يحتفظ بسلطة حقيقية على مجمل المشاغل التي تشكل هرماً يحتل هو قمته. بالطبع إن البِنى الديموقراطية مثل الجمعيات العمومية القومية أو الدولية كانت تتضمن السلطة «التشريعية» العامة، ولكن «المعلم الأكبر، الحاكم الفائق العظمة الفارس الأكبر» والمنتخب لمدة 5 سنوات هو الزعيم الفعلي للمنظمة بأكملها من القاعدة حتى القمة. لقد قدَّم جورج مارتان عام 1901 المنظمة العامة للماسونية المختلطة على الشكل التالي: «... إن المجلس الكوني المختلط الأعلى يصبح الآن، بالنسبة لمنظمتنا، القوة الوحيدة المنشئة للمشاغل من الدرجة الأولى وحتى الثالثة والثلاثين، ليس فقط لفرنسا...، بل أيضاً لكل بلدان الكوكب، نظراً لأن هذا المجلس الأعلى تكوَّن لأجل تأسيس المشاغل المختلطة... في كل مكان حيث يمكنه إقامتها، من أجل متابعة تحقيق المساواة في الحقوق للجنسين، في الماسونية أولاً ومن ثم الإعلان والاعتراف بالحق الإنساني في العالم الدنيوي... إن المجلس الأعلى هو الحجر الأساس للبناء في كل منظمة ماسونية ناجزة...»(4).

4 ـ السلَّم المساررِي والسلَّم الإداري

إن «المنظمة الماسونية المختلطة الدولية ـ الحق الإنساني» هي قبل كل شيء منظمة مساررية. هدفها تشجيع كل بحث

فلسفي وأخلاقي وروحي واجتماعي. فيجب على الماسوني أن يعمل على نفسه وأن يقوم بحثه على تحسين كيانه الداخلي. ولكن السلَّم المسارري لا يمكنه أن يكون ديموقراطياً. من هنا إن غرفة «الرفاق» (المحفل الأزرق المنعقد على مستوى الدرجة الثانية) تعيِّن المريدين الذين هم قابلون للترقي إلى الدرجة الثانية، والغرفة «الوسطى» (المحفل الأزرق المنعقد على مستوى رتبة المعلم) تختار زملاء من بين الرفاق هم الأخوات والإخوة الذين يُتوقع ترقيتهم إلى درجة «الأستاذ». ويجري الأمر على هذا المنوال وصولاً إلى قمة السلَّم المسارري الذي يعمل إذن من الأعلى نحو الأسفل. أما الدرجات المختلفة فيتم بلوغها بحسب وتيرة كل فرد. إن الدرجات التي تمَّ ارتقاؤها الواحدة تلو الأخرى قد أُعدَّت لإتقان التعليم. وعندما يستوعب الماسوني التعليم العائد إلى درجة معيَّنة ويقدم أبحاثاً عنه يمكنه أن يأمل بالارتقاء إلى درجة أعلى. لكن الموافقة على هذا الترقي تخضع للتصويت، ولا يوجد أي ترفيع آلي إلى درجة أعلى.

مع هذه البنية المساررية تتطابق بِنية إدارية. وكأية جمعية قومية فإن الاتحادَ يخضع لقوانين بلده: فالمقصود في فرنسا هو قانون عام 1901 المتعلق بالجمعيات. إلا أن البنية الإدارية لِـ «الحق الإنساني» عليها أن تكون ديموقراطية تعمل بحزم، وعلى هيئاتها أن تتصف نشاطاتها بالشفافية الكاملة. إلا أنه يصعب أحياناً التمييز بين السلّم المسارري والسلَّم الإداري لكونهما شديدي التشابك. ولكن إذا كان الأول يقوم على مبدأ انتخاب الزملاء فالثاني هو بلا ريب ديموقراطي.

الفصل الخامس

قرنٌ من التطور

مضى أكثر من قرن، أي منذ 1893، و«الحق الإنساني» ما يزال يؤكد ذاته.

لقد تطور وعرف كيف يحتل مكانة خاصة في العالم الماسوني والدولي. فبينما لم يكن المحفل المختلط في تلك السنة يضم أكثر من 20 عضواً أصبحت «المنظمة الماسونية المختلطة الدولية ـ الحق الإنساني» تحصي في عام 2002 حوالى 27,000 عضو يتوزعون على أكثر من 1000 مشغل ابتداءً من الدرجة الأولى حتى الدرجة 33.

إن التابعيات الذُكورية التي هي أقدم عهداً تعلن عن أعداد أكبر، بينما لا يعود «الحق الإنساني» في مساره التاريخي إلاّ إلى القرن العشرين. بالنسبة له فقد كان ضرورياً في البداية أن يصبح مفهوماً ومقبولاً، وهذا لم يكن سهلاً. إن فتح المشاغل في أوروبا وخارج أوروبا قد واجهه العديد من الصعاب. كما أن الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية قد تغيرت. مما اقتضى إعادة النظر في بعض الأمور وفرض أيضاً بعض التكيفات. لقد عرف القرن العشرون العنف بأشكال عديدة وكانت الحربان العالميتان

المثال الأكثر تبياناً له. يضاف إلى ذلك زمن الدكتاتوريات الفاشية والشيوعية والحرب الباردة وأيضاً حقبة من التقدم الاقتصادي كنا نظنه قابلاً للتضاعف، كل هذا أدى إلى تغيرات اجتماعية هامة لم تعمل على تسهيل نشر الرسالة الإنسانية لِـ «المنظمة الماسونية المختلطة الدولية ـ الحق الإنساني». إلا أن النصف الثاني من القرن العشرين شهد توسع التأكيد على حقوق الإنسان من خلال منظمة الأمم المتحدة والأونيسكو UNESCO. لقد أخذ «الحق الإنساني» الدولي مكانته في عولمة إنسانية نأمل أن تكون الفعل الغالب في القرن الواحد والعشرين.

منذ عام 1893 وحتى عام 2002 تطور المحفل بوتائر متغيرة بحسب العقود، وتطور أيضاً تحت تأثير الأحداث السياسية والاجتماعية والقومية والدولية الكبرى.

1 ـ تطور المنظمة:

1 ـ 1893 ـ 1914: تأسيس وبداية التابعية الماسونية الجديدة

كانت هذه المرحلة قصيرة لا تتجاوز العقدين، أي أقل من جيل. لكن الانطلاقة كانت حاسمة؛ إذ أن «الحق الإنساني» أبرز مسألة مجتمعية هي الشرط النسوي، وقد طرح مشكلة قبول النساء في الماسونية. بالفعل اندرجت هذه في مرحلة كانت الجمهورية في فرنسا خلالها تتأسس مع هاجس تجسيد كلمات الحرية والمساواة في حقيقة ملموسة من الحياة الجارية.

إن الفضل في تطور «الحق الإنساني» قد عاد أيضاً إلى بعض الماسونيين الذين لعبوا دوراً حاسماً. نذكر منهم بادئ ذي بَدءٍ في هذا المقام ماري وجورج مارتان اللذين التقيا خلال تنقلاتهما

العديدة بماسونيين وبدنيويين، فكانا يحثان أولئك على خلق المحافل المختلطة وهؤلاء على الالتحاق بالماسونية المختلطة. أما في العالم الأنكلوساكسوني فكان عمل آني بوزان (Annie Besant) في بريطانيا وفي الجزر الهندية الإنكليزية، ولويس غوازيو في الولايات المتحدة الأميركية حاسماً من أجل توطن «الحق الإنساني» في تلك البلدان. وقد لعب الأخ فريك (Fricke) في هولندا دوراً مشابهاً وكذلك الأخت والأخ هوند (Hund) في أُستراليا.

إن الإمبراطوريات الكبرى القائمة آنذاك (فرنسا، إنكلترا، هولندا) أصبحت أماكن انغراس للمحافل بفضل وجود الأوروبيين القادمين من الدول المستعمَرة (متروپول métropole). هذه هي حالة إفريقيا الشمالية (الجزائر، تونس، الدار البيضاء)، ومصر والهِند والهند الصينيَّة (Indochine). كان يجب تجنب فخ السيطرة الاستعمارية، وذلك بمحاولة تقديم المساررة للسكان المحليين (مثلاً، هانوي) وباستخدام اللغات المحلية خلال المراسيم (مثل اللغة العربية في مصر). كما أن «الحق الإنساني» قد تجذر غالباً في بداياته في شروق [جمع شرق ماسوني] حيث كان للتابعيات الذكورية بعض المشاغل، وحيث كانت الماسونية معروفة، ولكن اقتضى الحال فقط إسقاط التحفظات تجاه الاختلاط. بين أعوام 1893 و1901، أي في الحقبة التي نشرت فيها النصوص التأسيسية، كان تطور «الحق الإنساني» متواضعاً نسبياً واقتصر عملياً على فرنسا. ومنذ أعوام 1894 و1895 جرت محاولة فتح محفل في مدينة بلوا «Blois»؛ لكن هذه التجربة قد فشلت. في سنة 1901 كان المحفل في سبات. أما في مدينة ليون «Lyon»، وفي عام 1895 جرى أول توطن دائم حيث فتحت ماري بونيفيال المحفل رقم 2. واستقبلت مدينة روان «Rouen» في السنة التالية

المحفل رقم 3. في عام 1901 أعطى المحفل الأُمّ الحياة للمحفل رقم 4، والذي يحمل اسم أول «جليل» له، ألا وهو: ماري بونيفيال.

إننا لا نعلم شيئاً عن الأعداد الحقيقية لهذه المشاغل، ولكن يجوز لنا التفكير بلا خوف من الوقوع في الخطأ في أنها كانت في البداية أعداداً متواضعة. هنا تجدر الإشارة إلى أن عدداً كبيراً من مؤسسي المشاغل الأولى قد تمت مساررتهم في المحفل رقم 1 في باريس (مثل ماري ـ بيكيت دو فيين وآني بوزان...).

لقد جرت التجربة الدولية الأولى في المدينة السويسرية زوريخ، حيث استعانت العضو في رابطة «الهياكل الصالحة» شارلوت غريه (Charlotte Gray) بماري وجورج مارتان. وفي 16 آب/أغسطس 1896 افتتح المحفل الجديد، حيث تبوَّأ الأخ باير فريشي (Baer Frischi) منصب «الجليل»، وكان يعدُّ هذا المحفل 13 عضواً. غير أنه كان قصير الأجل: فبعد أن كان سنة 1901 في حالة سبات فإنه في عام 1905 كان قد تلاشى. ولكنه كان بمثابة الاختبار الأول خارج فرنسا.

ابتداءً من سنة 1901 أخذ تطور «الحق الإنساني» يجري بوتيرة أكثر تميُّزاً. فدستور وأنظمة ذاك العام قد وفرت إطاراً قانونياً محدداً وصلباً؛ بالإضافة إلى ذلك فقد أصبح «الحق الإنساني» معروفاً أكثر.

أما في فرنسا فقد تكونت المحافل الجديدة في المناطق وفي الضاحية الباريسية؛ وأخذت تنسج خيوطها التي تحتاج إلى أن تمتلئ. واستقرت في شروق متنوعة: كمدن ليون «Lyon» وروان «Rouen» والهافر «Havre» وتولون «Toulon» وكان

«Caen» وايفرو «Évreux» ونوجون ـ سور ـ مارن «Nogent-sur-Marne» وأوري «Auray» وليل «Lille» وكليرمون ـ فيران «Clermont-Ferrand» وأنجيه «Angers» ونانت «Nantes» ومارسيليا «Marseille» ولومان «le Mans» ونانسي «Nancy» وكوسي ـ فيشي «Cusset-Vichy» وتور «Tours» وديجون «Dijon» وبوردو «Bordeaux» وتولوز «Toulouse». أما في باريس نفسها فقد افتتح المحفل رقم 40، وانضمت إليه مشاغل من الرتب العليا كمجلس الأحبار والمجمع. وهكذا تثبتت المساررة المتواصلة. لقد كان من المنتظر أن تتأسس مشاغل من النوع نفسه أيضاً في مارسيليا «Marseille» وبوردو «Bordeaux».

أصبحت الصفة الدولية واقعاً في بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية وهولندا وإيطاليا. وهنا يجب ألاّ ننسى الدور الذي لعبته آني بوزان في بريطانيا. لقد اكتشفت «الحق الإنساني» كمناضلة نسوية واشتراكية واثقة، وذلك بفضل فرنشسكا أروندال (Francesca Arundale). فحصلت على المساررة عام 1902 في باريس مع ستة من أصدقائها. وبعد فترة وجيزة، أنشأت في لندن المحفل رقم 6 «هيومان ديوتي Human Duty». بعد عقد من الزمن بلغ عدد هذه المحافل عشرة، وهي تقع في مدن لندن وبرادفورد «Bradford» وليدس «Leeds» وساوثامبتون «Southampton» وورثينغ «Worthing» وباث «Bath». وكان للندن أيضاً مجلس أحبارها.

لقد طبعت آني بوزان بعمق «الحق الإنساني» البريطاني. وافتتحت بكونها «تيوصوفية Théosophe» [مذهب مبني على نظرية الحكمة الإلٰهية الكليَّة الحضور في الكون وفي الإنسان] طريقاً مميَّزاً من الروحانية. وقد وصل تأثيرها إلى الهند. فمنذ عام 1904

فتحت المحافل في بيناريس «Bénarès» ولاهور «Lahore». وفي سنة 1909 وُضع حجر الأساس لهيكل ادييار «Adyar»، وفي هذا التاريخ كانت لمدن بومباي وإله أباد وكولومبو محافلها الخاصة.

في الولايات المتحدة الأميركية وفي مدينة شارل روا «Charleroi» (ولاية بَنِسلفْانيا)، فتح لويس غوازيو(Louis Goaziou) ـ الذي أَطلق عليه مارك غروجان (Marc Grosjean) اسم «رجل أميركا»[5] ـ مع أنطوان موزاريللي (Antoine Muzzarelli) المحفل رقم (301 ـ ألفا)؛ وذلك في 25 تشرين الأول/أكتوبر 1905.

إن الفضل في التطور البارز لِـ «الحق الإنساني» في الولايات المتحدة الأميركية يعود بدون شك إلى لويس غوازيو. ولد غوازيو عام 1864 في سكرينياك «Scrignac»[6] في منطقة الفينستر «Finistère» الفرنسية، في وسط عائلة متواضعة من 10 أطفال (كان أبوه صانع أحذية ووالدته بائعة خرضوات متجولة، وقد أصبح يتيماً وهو في عمر السنتين). سافر وهو في السادسة عشرة من عمره إلى الولايات المتحدة الأميركية مع ثلاثة فتيان آخرين، لكنه ولعدم توافر المال اضطر إلى الذهاب إلى بنسلفانيا سيراً على الأقدام حيث عمل في مناجم الفحم الحجري مدة عشرين سنة. وسريعاً ما أصبح مناضلاً ثورياً ناشطاً في إطار من الاضطرابات الاجتماعية الشديدة (اضطرابات، مطالب، أزمات أحياناً عنيفة مثل مذبحة هاي ماركت Haymarket في شيكاغو). ولقد انطلق كنقابي ملتزم إلى العمل في مهنة الصحافة فساهم في تحرير جرائد ثورية باللغة الفرنسية لينتهي بتكوين «اتحاد العاملين» الذي نشأ بين سنتي 1901 و1906. تأثر بألبير ديلوارت (Albert Delwarte) الذي أصبح هو نفسه من وجهاء «الحق الإنساني» الأميركي، وتوصل

إلى الاقتناع بأن «الثورة الاجتماعية الوحيدة التي ستضع حداً لاستغلال الإنسان للإنسان هي تلك الثورة التي وإن كانت بطيئة فعلاً إلاّ أنها تكتمل يوماً بعد يوم في الأفكار». هذا إلى أن أخذ ينصح بالعمل السياسي والانتخابي بدل العمل المباشر والثوري. أما موزاريللي، وهو أستاذ في اللغة الفرنسية، فقد اكتشف «اتحاد العاملين» وأجرى اتصالاً به وأسس بالتعاون معه أول محفل أميركي لِـ «الحق الإنساني» في شارل روا «Charleroi» عام 1903. لقد أخذت محافل أخرى ترى النور في مدن جانيت وشيكاغو وسان لويس ولوس أنجلوس، وذلك منذ سنة 1904. أما فرادة هذه المحافل فتكمن في أنها لم تكن تستخدم الإنكليزية في أعمالها بل الفرنسية والإيطالية والروسية. وكانت ذات دينامية عظيمة. في 7 تشرين الثاني/نوفمبر 1908 وخلال انعقاد جمعية عامة في سان لويس اتُخذ القرار بتشكيل اتحاد للمحافل. فانتُخب لويس غوازيو رئيساً له، وفي عام 1909 عُيِّن كممثل «للمجلس الأعلى» للولايات المتحدة. في السنة نفسها وصلت آني بوزان إلى أميركا وأقامت محافل أنكلوفونية وأنشأت درجة «انستاليد ماستر» (أي اجتماع «المعلمين الأجلاّء» القدامى من أجل منح مسارة خاصة «لمعلم جليل» قادم ومنتخب). لقد ساهمت هذه في ولادة تيار خاص. فبهذه الطريقة تعايش خطان معاً، أحدهما عقلاني والآخر روحاني. إن هذا لم يعق تقدم «الحق الإنساني» على الإطلاق. في عام 1914 كان للولايات المتحدة الأميركية 74 مشغلاً أزرق و11 مجلساً للأحبار ومجمعان اثنان (وللتذكير في سنة 1921 كان هنالك في فرنسا 23 محفلاً ناشطاً). أما المحافل المتجذرة في مواقع المناجم (في بنسلفانيا وإيلينوي «Illinois» وكولورادو أو في وايومنغ «Wyoming») التي أسسها غوازيو فقد كانت تشكل قبل الحرب العالمية الأولى الأغلبية العظمى. إذ أن المحافل التي أنشأتها آني

بوزان كانت تقع في المدن الكبرى مثل شيكاغو ونيويورك وبوسطن.

ويرجع الفضل إلى آني بوزان في فتح المحافل المختلطة في إستراليا، فلقد أعطت المساررة للأخت والأخ هوند والأخت هايكرافت (Haycraft)، الذين ترأسوا تكوين المحافل عام 1911 في ملبورن وفكتوريا وفي العام التالي في سيدني ومن ثم في بريسبان «Brisbane» وسنة 1916 في بيرث «Perth». ومن مدينة سيدني قَدِم الإخوة مارتان وليدبيتر (Martyn et Leadbeater) لإنشاء المحفل الأول لـِ نيوزيلندا (New Zealand) في مدينة أوكلند «Auckland»، وذلك عام 1917.

لقد انطلق التوسع الآخر في أوروبا من هولندا، وذلك أيضاً بفضل آني بوزان. في 19 حزيران/يونيو 1905 أوقدت «المعلم الأكبر» ماري جورج مارتان في أَمستردام شعلة المحفل رقم 13 «كازوت Cazotte» وهو المحفل الهولندي الأول. تبعه سريعاً إنشاء أربعة محافل في لاهاي وروتردام (Rotterdam) وأرنهيم «Arnhem» وأيضاً في أمستردام. أما بلجيكا المجاورة فحصلت على محفلها الأول رقم 45 «الحقيقة» في عام 1914.

لقد ولدت الدولة الإيطالية الفتية عام 1871، واستقر المحفل الأول «الحق الإنساني» بِروما عام 1904. فبين هذا التاريخ وعام 1914 رأى النور 20 مشغلاً في مدن جنوى وميلانو وتورينو وموندوفيا «Mondovi» ونابولي «Napoli» ولاسبيزيا «La Spezia» وسانزانا «Sanzanna» وأوديتا «Udine» وفلورنسا. لقد كانت المحصلة مميَّزة في هذا البلد الذي للبابوية فيه تأثير بالغ.

أما في أوروبا الوسطى والشرقية فلم تشهد الكثير من مشاغل «الحق الإنساني» باستثناء پراغ وسالونيك «Salonique»،

لأن الأرشيفات حول هذه الشروق كانت قليلة، كما أننا لم نتمكن من الإحاطة بكل الحقائق.

2 ـ الحرب العالمية الأولى

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى كان «الحق الإنساني» قد تجاوز إنشاؤه الواحد والعشرين عاماً. وكان يسير في طريق التقدم لو لم تغيِّر هذه الحرب المعطيات إلى حد ما. أما المسار الذي بوشر فِعلُه من أجل عقد جمعية عمومية دولية عام 1914 فقد انقطع. ولم ينعقد الاجتماع إلاّ سنة 1920. غير أن النشاطات الماسونية لم تتوقف تماماً: ففي باريس ظلت المحافل الثلاثة الموجودة تعمل بانتظام، وفي عام 1917 أوقدت أميلي جيدالج (Amélie Gédalge) شعلة المحفل رقم 55 الذي أخذ اسماً تمييزياً هو اسم ماري ـ جورج مارتان، وفي إفريقية تابعت مشاغل تونس وفيليبفيل «Philippeville» والجزائر وجِبوتي «Djiboutti» وتاناناريف «Tananarive» نشاطاتها. وفي هولندا فتحت مشاغل جديدة في مدن أمستردام وأرنهيم. وفي سنة 1919 كان الوضع على الصورة نفسها في الهند الهولندية في سيمارانا «Semarana» وباندونغ «Bandung». وفي أُستراليا ظلَّ النشاط في القوة نفسها. وفي هذه الحقبة نفسها قام بعض الماسونيين بإنشاء «الحق الإنساني» في نيوزيلندا. لقد كان من المتوقع في عام 1916 تكوين «اتحاد» أرجنتيني إلاّ أن العلاقات بين هذه المحافل البعيدة و«المجلس الأعلى» كانت أحياناً معقدة.

3 ـ 1919 ـ 1939: التحصين في مرحلة ما بين الحربين العالميتين

في عام 1920 ومع الجمعية العمومية عاشت «المنظمة

الماسونية الدولية المختلطة ـ الحق الإنساني» لحظة حاسمة. فكانت بعدها التحولات المسجلة ذات أشكال متعددة: الزيادة في المنتسبين والمشاغل، التوسع نحو بلدان جديدة، خلق اتحادات ومحافل تشريعية باعتبارها كيانات يحددها «الدستور الدولي» لعام 1920.

في كانون الأول/ديسمبر 1921 أصبحنا نحصي:

ـ 282 محفلاً أزرق، منها 205 في حالة نشاط و37 في حالة سبات و23 في طريق التشكل.

ـ 63 مشغلاً من الرتب العليا، ومنها مشغل واحد من الدرجة 9 وواحد من الدرجة 13، و44 مجلساً حبرياً (34 في حالة ناشطة و4 في حالة تشكل و6 في حالة سبات)، يضاف إليها 11 مجمعاً ومحكمتان من الدرجة 31 و4 مجامع قيادية من الدرجة 32.

في أيلول/سبتمبر من السنة نفسها تغيَّرت الأرقام فأصبحت كالتالي:

ـ 285 محفلاً أزرق ومنها ثلاثون في حالة تشكل، و43 في حالة سبات. إن الإحصائيات لم تكن كافية كي نتابع بدقة التطور اللاحق.

أما بين الحربين العالميتين فكان التقدم واضحاً: لقد افتتحت المحافل في البلدان حيث كان هناك بعض منها، ولكن أيضاً في سواها مما جعل تمركز «الحق الإنساني» الجغرافي أكثر كثافة. لقد ضخمت المبادرات والانتسابات أعداد الأعضاء. ولكن يجب علينا هنا أن نكون حذرين، لأن بعض البيانات المتفائلة قد وُضعت أحياناً بدون تحليل نقدي حقيقي.

حصلت التحولات الأكثر أهميةً في أوروبا حيث ولد «الحق

الإنساني». في سنة 1901 كان لفرنسا 23 محفلاً أزرق فأصبحت 42 سنة 1924، ثم 90 محفلاً سنة 1938. وازداد العدد من 90 عضو عام 1921 إلى 2300 عضواً عام 1938. وأصبح نسيج العنكبوت الهش ممتلئاً، فافتتح 42 مشغلاً عام 1920 و21 آخر عام 1930، ويضاف إليها تلك التي نشأت في إفريقيا: في الجزائر ومصر وجزر الأنتيل.

أما مشاغل الرتب العليا فقد توسعت على هذا النحو:

ثلاثة محافل اكتمال، 22 مجلساً حَبْريًّاً ومثلث مجمعي واحد (فرنسا، مصر، الجزائر، تونكان)، و3 مجامع. بدورنا نذكر بأن المثلث هو النواة التحضيرية لفتح المشغل. إن «الاتحاد الفرنسي» الذي تأسس عام 1920 بدأ مهماته منذ كانون الثاني/يناير 1922، وقد نظم بنيته واضعاً الأنظمة الخاصة به ومتخذاً لنفسه مجلساً قومياً ومجمعاً وطنياً، يكون في معظم الأحيان رؤساؤهم من «المعلمين الكبار»: مثل أوجين بيرون ولوسيان ليفي وهنري بيتي (Eugène Piron, Lucien Lévi, Henri Petit).

إن بريطانيا وأمبراطوريتها الاستعمارية ما زال لهما وزن كبير. ففي عام 1920 كان في بريطانيا 22 مشغلاً أزرق و7 في الهند و7 في إستراليا و4 في نيوزيلندا و5 في إفريقيا الجنوبية. وقد كان لدى «الاتحاد البريطاني» تنظيم خاص يجعل من المحفل الأم رقم 6 محفلاً «لتنصيب المعلمين». وفي سنة 1933 سجل تقدماً ملحوظاً وكان كما يلي: 54 محفلاً أزرق في بريطانيا، 8 في إفريقيا الجنوبية، 3 في كندا، و19 في الهند، و12 في إستراليا، و4 في نيوزيلندا. العالم الماسوني المحدد هذا يملك أيضاً 17 محفلاً «مارك» [العلام] (بريطانيا، إفريقيا الجنوبية، الهند، إستراليا، نيوزيلندا) و15 مجلساً حَبْرياً «رويال إرش» [التاج الملكي]

(بريطانيا، سيلان، إستراليا، نيوزيلندا) يضاف إليها 15 مجلساً حَبْرياً من «الوردة المصلبة». أما محافل «العلام» ومجالس «التاج الملكي» فهي محافل ذات تقليد إنكلوساكسوني قد أَذِن بها «المجلس الأعلى» في أيار/مايو 1931، ولكنها لا تدخل في «الطقس الإسكُتلندي القديم والمقبول».

أما البلاد المنخفضة، فلقد بقيت بؤرة ناشطة للماسونية المختلطة. فإلى جانب المحافل الزرقاء السبعة التي افتُتحت عام 1920 أُضيف 7 محافل أخرى بين سنوات 1924 و1929. وفي عام 1930 بلغ المجموع 16 مشغلاً أزرق وثلاثة مثلثات تركزت في المدن الكبرى التي كانت تحتوي على بعضٍ منها في السابق وذلك قبل عام 1914. لقد لعب «الحق الإنساني» الهولندي في تلك الحقبة دوراً ناشطاً في أوروبا الوسطى والشرقية، حيث يعود له الفضل في نشوء بعض المحافل في ألمانيا والنمسا ويوغوسلاڤيا [السابقة] وتشيكوسلوڤاكيا [السابقة] وبلغاريا وحتى في بولونيا. كان الإخوة ريلفز وڤان چنكل (Reelfs, Van Ginkel) هم الماسونيون الهولنديون الذين كرَّسوا جهودهم لتكوين المحافل في هذه المناطق. إلاّ أن هذه البلدان عرفت شروط حياة صعبة، وذلك منذ توقيع معاهدات السلام في عامي 1919 و1920. فالسؤال كان كيف يمكن لهذه البلدان التي تكوَّنت أن تثبت وجودها؟ إن العقوبات الجسيمة على المنهزمين والمنصوص عليها في المعاهدات قد أدت إلى الكثير من الاستياء مما سهَّل صعود القومية ـ الاشتراكية. فمنذ عام 1933 تاريخ وصول هتلر (Hitler) إلى السلطة أوقفت المحافل الألمانية كل نشاطاتها، نظراً لأنها لم تستطع أن تكون مخلصة للنظام [الصاعد] كما تتطلبه «الواجبات القديمة».

في أوروبا الشمالية كان هنالك اتحادان هما «الاتحاد

الفنلندي» و«الاتحاد الإسكنديناڤي»، الذي يجمع ثلاثة بلدان هي الدانمارك والنروج والسويد. في سنة 1921 كان للدانمارك محفل في إيسلاندا في مدينة رَيكياڤيك «Reykjavik» هو المحفل رقم 724 «إيمير Ymir».

سنة 1914 لم يكن في بروكسل سوى محفل واحد. ولكنها شهدت تطوراً كبيراً بين الحربين العالميتين خصوصاً ابتداءً من عام 1927. فبعد مُضيٍّ سنة من هذا التاريخ راحت تحصي بلجيكا 7 محافل زرقاء ومجلساً حَبْرِياً، وهذا في مدن بروكسِل وأَنفِرس «Anvers» ولِييج وبروج «Bruge» وتورنيه «Tournai» وفيرفييه «Verviers». إن الحرب العالمية الثانية لم توقف هذه الانطلاقة.

أما في أوروبا المتوسطية فلقد خضع تطور «الحق الإنساني» للظروف السياسية. ففي عام 1920 كان في إيطاليا 35 محفلاً أزرق، لكنها اضطرت إلى توقيف نشاطاتها منذ سنة 1924 بسبب خضوعها لرقابة شديدة. في عام 1929 حرمت اتفاقيات لاتران «Latran» الجمعيات السرية. والمحافل الإيطالية لاذت بالصمت.

في إسبانيا وفي سنة 1928 كان يوجد 5 محافل «للحق الإنساني» في: مدريد وألميريا «Alméria» وبَرشِلونَة ومالاغا وإشبيلية. فعرفت الثلاثينيات من القرن العشرين شروطاً مؤاتية بفضل الجمهورية، ولكن مع بدء الحرب الأهلية ووصول فرانكو (Franco) إلى الحكم اكفهرت الأوضاع. وكما حصل في إيطاليا صمتت المحافل.

استقر «الحق الإنساني» في البرتغال عام 1923، وتحول محفل هومانيداد «Humanidad» إلى محفل مختلط. وتبعه آخرون في ليشبونَة وبورتو أليغرو وأكوباسا «Accobaça» وتندادي ليتاو «Tindade Leitao». إلاّ أنه في سنة 1937 صدر قانون يحظر

الماسونية في ذاك البلد؛ كما أن مدة دكتاتورية الجنرال سالازار (Salazar) الطويلة لم تسمح بأية نهضة.

في الولايات المتحدة الأميركية كان الوضع مختلفاً، فقد تركّز «الحق الإنساني» فيها بصلابة منذ ما قبل العام 1916 مع 74 محفلاً أزرق موزعاً على حوالى عشرين ولاية. وقد بلغت 77 محفلاً في عام 1919 وأضيف إليها 20 مجلساً من «الوردة المصلبة» ومجمعاً ومجلساً قيادياً. لقد بقي لويس غوازيو ناشطاً جداً. فاشترى سنة 1918 قطعة أرض في لاركسبور «Larkspur» (في ولاية كولورادو) ليبني عليها مركزاً إدارياً «للاتحاد الأميركي». فبلغت قيمة الشراء وقتئذٍ 21 ألف دولار، ولكن يجب إضافة مبلغ آخر بقيمة 30 ألف دولار كتكاليف بناء. لذلك أنشأ غوازيو صندوق البناء لجمع الهبات. لقد أُنجزت المباني سنة 1924 وخصص أحد للهيكل والقسم الثاني للمكاتب الإدارية. ولكن أزمة المناجم الخطيرة ضربت ولاية كولورادو وفقد عمال المناجم أعمالهم ومنهم ماسونيون إيطاليون كانوا أعضاء في «الحق الإنساني».

لذلك ظلَّ المشروع غير مكتمل بحيث لم تُبْنَ دُور الأطفال والعَجَزة. إن الأزمة الاقتصادية لعام 1929 قد فاقمت الوضع وأصبحت إدارة «الاتحاد» في لاركسبور عبئاً ثقيلاً، خصوصاً أن الهبات أصبحت شيئاً فشيئاً نادرة وضئيلة. كان الاتحاد الأميركي يتمتع بتنظيم متين، فالجمعية العامة المنعقدة كل خمس سنوات كانت تنتخب الرئيس. وعندما انعقدت في 18 آب/أغسطس 1924 في لاركسبور استقبلت 61 مندوباً قدموا من 21 ولاية ومن مقاطعتين كنديتين. سنة 1938 كانت المشاغل الثمانية والسبعون تشهد على تقدم «الحق الإنساني». ولكن ما هي المناطق التي استقبلت المحافل المختلطة؟ لقد بدأت الانطلاقة في شمال شرق

بنسلفانيا، ومن هذا الموقع انتشرت في المناطق المصنعة المجاورة: الشمال الشرقي ومنطقة البحيرات الكبرى[7]، ومن هنا بلغت إلى ولايات الوسط الغربي[8] قبل أن تتقدم نحو الجبال الصخرية[9] لتصل أخيراً إلى المحيط الهادي[10]. أما في الجنوب، فكانت المحافل[11] موجودة، ولكن الجنوب التقليدي أي جنوب القطن والبترول فلم تكن لديه أية محافل. فالوضعية الاجتماعية في هذه المناطق هي خاصة وتختلف كثيراً عن الوضعية في المناطق الصناعية بخصوص العقلية.

عشية الحرب العالمية الثانية كان «الاتحاد الأميركي» صلباً. ولكن كان لا بدَّ من التساؤل. فالأزمة التي أصابت المناجم جعلت الإبقاء على بعض المحافل المتوطنة متعسراً. إذ أن 7 من محافل «الحق الإنساني» كانت قائمة في مدن المناجم والتي أصبحت منذ تلك الحقبة «مدن أشباح». بالإضافة إلى هذا فإن لويس غوازيو قد توفي في سنة 1937، فهل سيتمكن خلفاؤه من المحافظة على الوضع، بينما الصعوبات الاقتصادية ما تزال حاضرة. هذا رغم سياسة روزفلت (Roosevelt) «النيو ديل»؟.

في أميركا اللاتينية عرف «الحق الإنساني» تطوراً هاماً في فترة ما بين الحربين العالميتين. فقد أقام لويس غوازيو علاقات منتظمة بهذه البلدان، وساهم بلا شك في اتخاذ قرار الانضمام إلى الماسونية. أما في الأرجنتين فيقتضي التذكير بالدور الهام الذي لعبه الماسونيون الإيطاليون. إنها تلك الحقبة التي أنشأ فيها المهاجرون الإيطاليون المستوطنات الزراعية على سفوح سلسلة جبال الأند (Andes). يضاف إلى ذلك أيضاً التدخل من قِبل الأخ جيناراجادازا (Jinarajadasa)، الذي أصبح بعد تلقيه المسارة في الولايات المتحدة الأميركية عضواً في الاتحاد البريطاني الشرقي.

لقد كان هذا الأخ متعدد اللغات ويجيد الإنكليزية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية. ولقد انتدبه «المجلس الأعلى» عام 1929 لتسريع مسار افتتاح المحافل، فكان تدخله حاسماً. إلا أنه كان تيوصوفياً. لذا كان «الحق الإنساني» في أميركا اللاتينية وكما في مناطق أخرى يماهى بالتيوصوفية.

في سنة 1912 دخل «الحق الإنساني» إلى الأرجنتين، وبعد سنة أصبح هناك ثلاثة محافل في: توكومان «Tucuman» وجوجوي «Jujuy» وروزاريو. أما في سنة 1918 فقد أنشئت بعض المثلثات في بُوانُس أيرس «Buenos Aires» ومندوزا وسانتافي «Santa Fé» وباهيابلانكا «Bahia Blanca». في 20 آب/أغسطس 1916 أنشئ الاتحاد الأرجنتيني بقرار من «المجلس الأعلى»، وبناءً على طلب لويس پاسكال. وأُنشئ في العديد من البلدان الأخرى محافل لِـ «الحق الإنساني»:

محفل كوستاريكا في سان جوزي (عام 1918)، ومحفل كولومبيا، وكان هذا بفضل الأخ آكونا (Acuna)، ومحافل بوليڤيا في لاباز والباراغواي في الأسنسيون والشيلي في فالباريزو وسانتياغو (Santiago) (عام 1920)، وفي السنة التالية أنشئ محفل الأوراغواي في مونتيفيديو «Montevideo»، وفي سنة 1929 كان محفل البيرو في ليما وفي عام 1939 محفل پاناما. وافتتحت في الوقت نفسه مشاغل من الرتب العليا: مجلس حَبْري في الأرجنتين سنة 1922 وآخر في كوستاريكا سنة 1929، بينما كان في شيلي محفلا اكتمال اثنان ومجلس حَبْري ومجمع.

منذ دستور 1920 كانت مشاغل البلد الواحد تستطيع أن تتجمع في اتحاد أو محفل مرجعي واحد. وبقي كلٌّ منها خاضعاً «للمجلس

الأعلى»، ولكنه كان يتمتع باستقلالية إدارية تحددها أنظمته الخاصة. في عام 1921 كان هنالك ثلاثة اتحادات: في الولايات المتحدة الأميركية (مع كندا) وفرنسا وإيطاليا. وأصبح عددها في سنة 1927 ثمانية اتحادات. فجاءت اتحادات البرازيل وبلجيكا وبريطانيا وهولندا لتكمل اللائحة الأساسية. ثم استمرَّ التغيُّر: في سنة 1938 انقسم الاتحاد البريطاني إلى قسمين: القطاع الغربي في بريطانيا وكندا وأفريقيا الجنوبية والقطاع الشرقي مع الهند وسيلان وإستراليا ونيوزيلندا. وقامت اتحادات جديدة في الشيلي والمكسيك وبولونيا. كان اثنان منها فقط في حالة سبات عشية الحرب، هما: إيطاليا وبولونيا. بالإضافة إلى أن البرازيل أصبحت محفلاً مرجعياً [ذا صلاحيات معتقدية خاصة بالماسونية].

أما الكيان الإقليمي الآخر فهو بالفعل المحافل المرجعية. ففي سنة 1920 بلغ عددها العشرة وهي: بريطانيا وهولندا وإسكندينافيا (الدانمارك والنروج والسويد) وفنلندا وكوستاريكا والمكسيك والهند الهولندية وسويسرا وبلجيكا وإِسبانيا. في سنة 1927 أصبحت هذه المحافل أقل عدداً وتحول بعضها إلى اتحادات. إننا نذكّر هنا ببعض الأوضاع، ومنها انفصال الأرجنتين عن البرازيل والإشارة إلى بعض البلدان الجديدة مثل بلغاريا وشيلي واليونان والبيرو والبرتغال التي شكّلت محافلها المرجعية. في عام 1938 ظهر اسم المحفل المرجعي النمساوي ـ الألماني، ولكنه كان في الحقيقة كما المحافل المرجعية الإيطالية والإِسبانية في حالة سبات.

خلال السنوات العشرين لفترة ما بين الحربين العالميتين كان نشاط الماسونيين في «الحق الإنساني» بنَّاءً. ولكن ينقصنا الكثير من المعلومات: فالأرشيفات غير متوافرة والبيانات الإقليمية مبهمة بعض الشيء، ما يجعل ذكر الأرقام بدقة أمراً صعباً. ففي

عام 2000 لم يسمح استرداد الأرشيفات المحجوزة في موسكو بسد الثغرات. كما أن مراجعة هذه الأرشيفات ما تزال مستمرة.

4 ـ سنوات الحرب: 1939 ـ 1945

كانت هذه السنوات بالنسبة للماسونية على وجه التحديد في أوروبا مرحلة عصيبة، ولكنها لم توفر أيضاً القارَّات الأخرى. وفي سنة 1945 لم يكن استئناف النشاطات سهلاً. قِبل سنة 1939 كانت الاتحادات في حالة سبات. وفي ربيع 1940 اجتاح الجيش الألماني أوروبا الغربية كالسيل الجارف. وفي 8 حزيران/يونيو قرَّر المجلس الوطني الهولندي إغلاق مشاغله. وفي أيلول/سبتمبر وضعت مقرَّاته تحت الحراسة القضائية. وفي بلجيكا حُظرت الماسونية، ووضعت الأختام بالشمع الأحمر على مقرات شارع ليرميتاج «Ermitage» في بروكسِل. فدخل بعض الماسونيين مثل الأخت دوڤاليه (Devalet) في السرية. لقد حافظ البعض على علاقات معيَّنة مع فرنسا وبنوع خاص مع ماريوس ديبورد (Marius Desbordes). أما في الدانمارك والنروج فقد أدى الاحتلال النازي إلى توقف النشاطات. وفي فنلندا دخل «الحق الإنساني» في حالة السبات وذلك منذ 7 نيسان/أبريل 1941 وحتى 22 كانون الثاني/يناير 1946. بينما السويد التي نجت من الاحتلال الألماني فقد استطاعت المحافظة على نشاط سري. وفي سويسرا واليونان ساد الصمت. أما في فرنسا فقد تمَّ الحَظْر على الجمعيات السرية وعمل الشرطة السياسية المكلفة بمراقبة الجمعيات التي حُلَّت ودور الغستاپو (Gestapo) قد جعل الرغبة في عقد الاجتماعات مسألة محفوفة بالمخاطر. لقد تمَّ احتلال المقرَّات الماسونية وصودرت موجوداتها وسرقت أرشيفاتها. ولكن

الماسونيين أبقوا على العلاقة فيما بينهم، ودخل بعضهم في التيارات الكبرى التي نشأت داخل المقاومة.

أما في بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية فلقد حافظت المشاغل على بعض نشاطها. لكن سرعان ما سبَّبت صعوبات الاتصالات ونقص وجود المقرَّات في إنكلترا شعوراً بالضيق، وقد أدت إلى الحد من عدد الاجتماعات. فتمَّ تعيين «مجلس أعلى» مؤقت في البلدين مكلف بإدارة الاتحادين معاً إلى حين استتباب السلام.

5 ـ «الحق الإنساني» منذ عام 1945: الوضع الحالي

لقد استطاعت التابعية تجاوز الصعوبات والمُضيَّ في تقدمها. ففي سنة 1938 وازى عددها أحد عشر اتحاداً وأحد عشر محفلاً مرجعياً. وفي عام 2002 بلغ العدد 18 اتحاداً و17 محفلاً مرجعياً و18 محفلاً رائداً، اثنان منها كانا في حالة سبات (أندور وكوناس (Andorre et Kaunas)). إن التغيُّرات كانت ملموسة بخصوص أعداد الأعضاء والمشاغل، وأيضاً بخصوص التوزيع الجغرافي.

كانت الحرب العالمية الثانية (1939 ـ 1945) حدثاً رئيسياً بالنسبة للعالم بكامله. وغداة هذه الحرب بدأ «القرن العشرون الثاني». لقد كانت الخسائر البشرية هائلة، والدمار الشامل كان يتطلب إعادة إعمار سريعة ومكلفة. والأمر يحتاج إلى جهود جبارة. والعالم الخارج من الكارثة لن يكون في مأمن من المشاكل. لقد قسمت التكتلات أوروبا إلى قسمين: فوجود الماسونيين التشيكيين في الجمعية العمومية لعام 1947 سجل الإفاقة الأخيرة، وذلك قبل الدخول في زمن طويل من الصمت. كان يجب انتظار سنة 1989 وسقوط جدار برلين لرؤية انطلاق

بدايات يقظة. ويبقى على القرن الواحد والعشرين أن يدعم كل من كان يحاول أن يحيا من جديد.

أما خارج أوروبا فكان للحرب آثار أخرى. ففي أميركا لم تجد الصعوبات الاقتصادية التي واجهها «الاتحاد الأميركي» حلولاً، بل أن الحرب جعلتها تتفاقم. كما أن مجتمع «السنوات الثلاثين المجيدة» اختلف جداً عما كان عليه خلال فترة ما قبل الحرب: هنا هل ستجد من جديد الماسونية مكانها؟ إن ذلك ليس أكيداً قطعاً. فأميركا اللاتينية كانت قد دخلت في مرحلة من الأزمات السياسية والاقتصادية ومن الدكتاتوريات وحروب العصابات. إذن أين هو مكان الماسونية؟

في إفريقيا وآسيا انتهت الحرب بالتحرر من الاستعمار. فالحروب (الهِند الصينيَّة والجزائر وتونس) قضت على المحافل. وبرزت بلدان جديدة تُظهر أحياناً الوجه الديموقراطي.

إن إعادة الانطلاق قد حصلت بطريقة غير متساوية وبحسب البلد والفترة. فكانت أحياناً كالطفرة، كما هي حال زوريخ حيث أن المحفل الذي افتُتح في سنة 1951 لم يعد له وجود عام 1958. وكان يجب انتظار سنة 1981 لإيجاد «الاتحاد السويسري» من جديد. ففي أوروبا الغربية استأنفت أربعة بلدان نشاطاتها الماسونية في كنف «الأستاذية» الكبرى لـِ «مارغريت مارتان وشارل كامبييار Marguerite Martin, Charles Cambillard» (1947 ـ 1969)، والتي هي: فرنسا وإنكلترا وهولندا وبلجيكا. في ربيع 1945 حاول المجلس القومي الفرنسي وضع تقييم عام فعقد في أيلول/سبتمبر الجمعية العمومية الأولى لما بعد الحرب. إن المشاغل المستعدة لذلك كانت قليلة وإن الجراح لبليغة. في الخمسينيات استفاقت بعض المشاغل وتأسست أخرى سواها

جديدة. فشرعت بلجيكا منذ نهاية الحرب (عام 1945) في مرحلة من التكوين والتنظيم. وفي سنة 1958 جرى التصويت على أنظمة الاتحاد. وتزودت هولندا منذ سنة 1947 بمجلسها القومي. أما في بريطانيا فكانت الانطلاقة مشروطة بترميم المقرَّات. كما أن «المجلس الأعلى» لفترة الحرب قد أوقف نشاطاته.

إن اليقظة لم تقتصر على الجزء الغربي من أوروبا. ففي عام 1951 نشأ محفل في هلسنكي «Helsinki»، وفي السنة التالية تكوَّن في ڤيينا محفلان (الرقم 756 والرقم 900). وأُقيمت بفضل الأخ تيرنس (Thierens)، عام 1958 المحافل لألمانيا وللنمسا. أما في جنوب أوروبا فكان الوضع دقيقاً. إن يقظة «الحق الإنساني» في اليونان قد حصلت عام 1947 بينما الاتحاد اليوناني قد استقر عام 1964. ففي إسبانيا كان يجب انتظار سنة 1978 لرؤية استفاقة محفل واحد في برشلونة. وفي البرتغال كان افتتاح محفل «هومنيداد Humanidad» في الثمانينيات علامة انطلاقة جديدة.

ما هو الوضع في عام 2002، أي بعد مُضيٍّ 57 سنة على انتهاء النزاعات؟ إن «المنظمة الماسونية المختلطة الدولية ـ الحق الإنساني» قد «استعادت عافيتها وعزمها» بحسب العبارة الماسونية. فضمت حوالى 27 ألف عضو موزعين على 1006 مشاغل ومنها 735 محفلاً أزرق. كما أنها تحتوي حالياً على 20 اتحاداً و13 محفلاً مرجعياً و18 محفلاً رائداً. أيضاً لقد حصل التغيير في التوزيع الجغرافي للمحافل والذي أظهر انتشاراً غير متساوٍ بين القارَّات. فالكثافة الأقوى نجدها في أوروبا: 13 محفلاً اتحادياً ومحفلان مرجعيان و6 محافل ريادية. هذا يمثِّل حوالى 22 ألف عضو أي أكثر من 80 بالمئة من المجموع العام. لقد بقيت الاتحادات «القديمة لفرنسا وإنكلترا وهولندا وبلجيكا هي الركائز، ولو أن أحدها، أي الاتحاد

الإنكليزي قد عرف فترات عصيبة. أما اتحادا فرنسا وبلجيكا فهما الأكثر أهمية. لقد احتوى الأول على حوالى 14 ألف عضو والثاني على 6 آلاف عضو. في أوروبا الشمالية تابعت الاتحادات الإسكندينافية والإسلانديَّة الناشئة عام 1985 نشاطها بدينامية. إنّنا نحصي حالياً في أوروبا الشرقية والوسطى ثلاثة اتحادات (النمسا وسويسرا ومنذ عام 2002 بولونيا)، ومحفلاً مرجعياً في بُلغاريا وثلاثة محافل ريادية في بُخارِست وپراغ وبوداپست. أما محفل كوناس (في ليتونيا) المفتتح عام 1996 فهو في حالة سبات. إننا نجد في أوروبا الجنوبية ثلاثة اتحادات: هي اليونان وإيطاليا ومنذ 2001 إسبانيا ومحفلاً مرجعياً في البرتغال . أما اللوكسمبورغ فله وضع خاص، إنه يحوي ثلاثة محافل ريادية غير مجتمعة في محفل مرجعي. أما في سائر أنحاء العالم فإن «الحق الإنساني» ما يزال موجوداً ولكن التغيرات السياسية والاقتصادية فرضت عليه شروطاً جديدة؛ فالمشاغل هي في معظم الأحيان مبعثرة وأعضاؤها قليلون ولكنهم ناشطون، وينتمون إلى محافل مرجعية واتحادات تسمح باحترام هُويَّاتهم وبمنحهم بعض الاستقلالية.

في أميركا الشمالية تتواجد المشاغل في الولايات المتحدة الأميركية وكندا. و«الاتحاد الأميركي» الذي كان يضم 87 مشغلاً عام 1938 لم يتبق له سوى 15 مشغلاً. لقد بدا أن هنالك وثبة قيد الانطلاق، ولكن تحولات المجتمع الأميركي أدت إلى التخلي عن الالتزام الماسوني. أما المحافل الخمسة الكندية فإنها تشكّل محفلاً مرجعياً ديناميكياً.

في أميركا اللاتينية استطاع «الحق الإنساني» أن يحافظ على وجوده وذلك في شروط دقيقة وخطيرة. ولذلك أبقت المحافل الشيليَّة على سرية نشاطاتها خلال دكتاتورية بينوشيه (Pinochet).

ورغم تجارة المخدرات والبؤس وعدم الأمن توصلت محافل كولومبيا إلى تشكيل محفل مرجعي منذ 2002. في المقابل، إن الوضع هناك هو على الصورة التالية: اتحاد واحد في البرازيل وخمسة محافل مرجعية في أميركا الوسطى والجنوبية وجزر الكاراييب (الأرجنتين، مكسيك، كولومبيا، شيلي وكوستاريكا). يضاف إليها أربعة محافل ريادية في أسونسيون «Asunción» في باراغواي وليما في البيرو ومنتيڤيديو في أوروغواي وكاراكاس في ڤنزويلا . وفي المحصلة لا يمثل ذلك سوى 55 مشغلاً (أي حوالى 15 بالمئة من عدد مشاغل الاتحاد الفرنسي).

إن التحرر من الاستعمار في إفريقيا الشمالية ومصر قد تبعه زوال المحافل القديمة. ولكن «الحق الإنساني» حافظ على وجوده في إفريقيا السوداء وإفريقيا الجنوبية، وذلك في الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة الفرنسية والإنكليزية والبلجيكية والپرتغالية. حالياً يوجد هنالك اتحادان: في إفريقيا الجنوبية، ومنذ عام 2000 في إفريقيا الغربية (شاطئ العاج، السنغال، توغو) يضاف إليهما ثلاثة محافل مرجعية في الكامِرون ومَدَغشقَر وجزر الموريس، وخمسة محافل ريادية: في بوركينافاسو وأوواغادوغو وبوروندي «Burundi» وبوجونبورا «Bujumbura» وفي مالي في باماكو وفي رُواندا في كيغالي وفي زائير في لوبومباشي. أما في منطقة المحيط الهادئ فقد فتح الاتحاد الفرنسي مشاغل في تاهيتي وفي كاليدونيا الجديدة «Nouvelle-Calcédonie». وفي آسيا وأوقيانيا كان الانحسار جلياً. فبعد انشقاق اتحادين ومحفل مرجعي لم يبق سوى اتحاد إسترالي واحد ومحفل مرجعي إندونيسي واحد، أي ما مجموعه 24 محفلاً. إن واقع الانشقاق في الاتحاد أو المحفل المرجعي لا

يعني زوال الأخوات والإخوة الذين كانوا جزءاً من الطائفة الماسونية. فالدستور الدولي، يترك للبنى القومية في حال الخلاف حرية الانفصال عن المنظمة الماسونية الدولية. والروابط بين الاتحادات والمحافل المرجعية لمختلف الدول لا يمكنها بالطبع سوى أن تكون طوعية.

2 ـ البِنيات الإدارية

إن هذا المجموع الهرمي قد يبدو معقداً، ولكن البِنيات الإدارية التي حددها الدستور الدولي هي نسبياً بسيطة وتجمع بين المركزية وبين الاستقلالية.

فالإدارة تعود إلى «المجلس الأعلى» وإلى «الأستاذ الأعظم» وهما يمسكان بالسلطة التنفيذية ويشكِّلان حجر الأساس في البناء، إذ تعود إليهما قرارات إنشاء المحافل والمحافل المرجعية والاتحادات ومراقبة الطقوس وإعداد بطاقات الهُويَّة الماسونية، وإذا اقتضى الأمر سنُّ قانون العقوبات. والسلطة التشريعية هي بيد الجمعية العمومية الدولية، والتي تنعقد كل خمسة سنوات في باريس (Paris) في المقرِّ الرئيسي للمنظمة. لكن حتى عام 1997 ظلت تجتمع كل سبعة سنوات. وهي تجمع النواب المنتخبين من قِبل المحافل الريادية والمحافل المرجعية والاتحادات. «فالمجلس الأعلى» يدعو إلى انعقادها والمعلم الأعظم يترأسها ويكون دوره:

ـ قبول (أو رفض) محضر النشاطات الذي يقدمه «المجلس الأعلى» منذ انعقاد آخر جمعية عمومية دولية.

ـ انتخاب المجلس الأعلى الجديد من المتقدمين بترشيحهم. «فالمجلس الأعلى» المنتخب هو الذي يختار من داخله وبالاقتراع العام «المعلم الأعظم» ونائبه.

في سنة 2002 أعيد انتخاب الإيسلندي نيوردور نيارفيك (Njördur P. Njardvik) «كالمعلم الأعظم»، والفرنسية دانيال جوييت (Danielle Juette) كنائبة له.

ـ التصويت على التعديلات المحتملة للدستور الدولي والقرارات الموجهة إلى «المجلس الأعلى» الذي تكون من مهماته الإجابة عليها.

أما على الصعيد الإقليمي فهنالك ثلاث بنيات وهي: المحافل الريادية والمحافل المرجعية والاتحادات. المحفَل الأول الذي يفتتح في بلد معيَّن هو محفل ريادي ويتبع مباشرةً «المجلس الأعلى». ولكن هذا الأخير يمكنه أن ينتدب لهذه المهمة أحد الاتحادات، وهكذا عهد بمحفل بُخارِست إلى الاتحاد الفرنسي. وعندما يصبح عدد المحافل الزرقاء خمسة على الأقل فيمكنها أن تشكِّل اتحاداً يكون للمجلس الأعلى ممثل لديها هو بدرجة «الفارس الأكبر الفائق العظمة». وهذا الأخير يظل في وظيفته على امتداد الفترة التي تفصل بين جمعيتين عموميتين دوليتين، كما يحرص على احترام الدستور والأنظمة وعلى نظامية القرارات. إنه أداة الوصل مع «المجلس الأعلى» الذي يقدم له طلبات تكوين المحافل والعقوبات واقتراحات الترقي إلى الرتب العليا.

إن لكل اتحاد هيئاته التنفيذية والتشريعية وأنظمته. فالاتحاد الفرنسي هو بلا جدال الأكثر أهمية[12]، وتنظيمه يمكن اعتباره نموذجياً. فالجمعية العمومية السنوية التي تجمع النواب من كل المشاغل (من الدرجة الأولى وحتى الدرجة الثلاثين) تمثِّل السلطة التشريعية. أما السلطة التنفيذية فتعود إلى ثلاث هيئات هي: المجلس القومي والمجمع الوطني والمجلس الأكبر.

يتألف المجلس القومي من 39 مستشاراً قومياً (حتى عام

2001 كان عددهم 33 مستشاراً قومياً) تقترحهم المناطق الثلاثة عشرة وتنتخبهم الجمعية. إن مدة ولايتهم هي ثلاثة سنوات تتجدد مرةً واحدة، ويختارون بالاقتراع السنوي رئيسَهم الذي يعاونه مجمع كهنة.

أما المجمع الوطني فيضم المستشارين القوميين الذين بلغوا الدرجة الثلاثين. ومهمته هي إدارة المشاغل من الدرجة الرابعة وحتى الدرجة الثلاثين.

والمجلس الأكبر يجمع الماسونيين الذين بلغوا الدرجة الثالثة والثلاثين، والذين ينتخبون من قِبل أندادهم في كل جمعية عمومية دولية. وتعود لهم بنوع خاص مهمة إعداد الاقتراحات للدرجات الأعلى (31، 32 و33). إن هذا التنظيم كان ضرورياً بسبب الأهمية العددية للاتحاد الفرنسي. فمنذ الجمعية العمومية الدولية لعام 2002 أصبح من المفروض على جميع الاتحادات أن يكون لديها مجلس منتخب.

إن النموذج الفرنسي يدل على أن تمركز السلطة التنفيذية الدولية داخل «الحق الإنساني» بين أيدي «المجلس الأعلى» لا يمنع استقلالية الاتحادات التي تقرر بنفسها أنظمتها الخاضعة لقوانين البلد. وهي بهذا الشكل ذات طابع قومي مؤكد يعكس ماضي هذه الاتحادات المعنيَّة وحاضرها.

الفصل السادس

قرنٌ من التاريخ

بلغ «الحق الإنساني» مئة وعشرة أعوام..

لقد واجهت المنظمة ومنذ أكثر من قرن صعوبات داخلية واعتداءات خارجية مصدرها العالم الدنيوي، وأيضاً مثلها من العالم الماسوني. لكنها نجحت في مواجهة كل هذه الصعاب وفي تثبيت قيمها في المجتمع وفي تحقيق ما يشكّل علّة وجودها في الواقع.

1 ـ الجدالات الداخلية

إن «الحق الإنساني» هو مجتمع تقليدي ومساري. إذن وبصفته هذه تقوم رسالته على تحقيق التطور الروحي لأعضائه. ولكنه يواصل أيضاً هدفه في العمل على بناء مجتمع أكثر عدلاً وعلى تحقيق شعار المنظمة وهو: الحرية والمساواة والأخوة.

هذان المحوران في العمل الماسوني اللذان ندعوهما المحور الروحاني والمحور العقلاني، هما بالطبع أبعد من أن يكونا متعارضين. بيد أن «الحق الإنساني» كمعظم التابعيات الماسونية

لم يسلم من الجدالات ـ والعنيفة أحياناً ـ التي فرَّقت بين الذين يفضلون محوراً على آخر. فبحسب مراحل تاريخه واستناداً إلى الشروق تفتقت بعض الصعوبات نتيجة المواجهة بين هاتين النظرتين إلى الماسونية.

في «الحق الإنساني»، أخذ الجدل بين الروحانيين والعقلانيين منحًى غريباً بعض الشيء، وذلك تقريباً منذ ولادة المنظمة. وعبَّر عن ذاته بنوع خاص في عشرينيات القرن الماضي. كان من بين المؤسسين «للمنظمة الماسونية المختلطة الدولية ـ الحق الإنساني» امرأة قد لعبت حقاً دوراً كبيراً هي آني بوزان (1847 ـ 1933) وهي من أصل إيرلندي. لقد تزوجت القس الإنكليكاني فرانك بوزان وأنجبت منه ولدين. ثم تركت زوجها وانخرطت في حركة «المفكر الحر» (سيكولار سوسيتي Secular Society). وظلت بين عامي 1874 و1889 داخل الإمبراطورية البريطانية كمناضلة نشيطة تدافع عن الطبقات الأكثر فقراً في المجتمع، وتساهم في إنشاء النقابات للعمال غير المؤهلين وتناضل أيضاً من أجل المدرسة العلمانية المجانية والإلزامية. بعد انخراطها في صفوف الجمعية التيوصوفية تابعت عملها النضالي في الهند من أجل انعتاق المرأة واستقلال هذا البلد. فسجنت من قِبل السلطات البريطانية وأصبحت عام 1921 رئيسة حزب المؤتمر الهندي. وتوفيت في مدينة آدييار «Adyar» عام 1933.

في سنة 1889 وبعد أن قرأت آني بوزان «العقيدة السرية» لهيلينا بلافاتسكي (Héléna Blavatsky) دخلت إلى الجمعية التيوصوفية. ثم سافرت في عام 1893 إلى الهند، حيث كان مؤسسو هذه الجمعية أولكوت وهيلينا. ب. بلافاتسكي قد ابتاعوا قطعة أرض في أدييار (قرب مدراس). ولا تزال هذه الملكية إلى

الآن المركز العالمي للجمعية. لقد نشرت آني بوزان التعاليم التيوصوفية وطوَّرت بموازاة ذلك التعليم الرسمي في تلك البلاد. في عام 1907 أصبحت هي الرئيسة العالمية للجمعية التيوصوفية. لقد درست الجمعية المذهب الباطني وحتى المذهب الإخفائي من خلال مقاربات متنوعة وشرقية بالدرجة الأولى. وادعت بأنها تعلم «المأثور الأولي». فالتيوصوفيون يؤمنون بوجود عدة أجسام: المادية والأثيرية والنجومية والتي تختفي عند الموت لتعود فتندمج في غلاف آخر. إذن فهم يؤمنون بالتقمص. وبالنسبة لهم يجب على البشر أن يسعوا من خلال حياة نزيهة إلى بلوغ أنواع من الوجود أكثر فأكثر طهراً وسعادة. وهذا يصبح ممكناً من خلال التضحيات الجسدية والدراسات الروحية والأخلاقية المتطورة جداً. ينبغي معرفة كل قوانين الطبيعة والتوصل إلى قيادة قوى مجهولة، ولكنها موجودة ويمكنها أن تطيع عندما تجد كلمة الأمر.

إن هذا التوكيد الأخير من قِبل بعض التيوصوفيين قد أدى إلى تطوير ممارسات أكثر اقتراباً من مناجاة الأرواح.

حصلت آني بوزان على المساررة في «الحق الإنساني» عام 1902، أي بعد عشرين سنة من إنشاء الاتحاد الفرنسي، وكان تأثيرها حاسماً في تطور الماسونية الأنكلوسكسونية للمنظمة. ولكن في فرنسا وفي المستعمرات الفرنسية تأثر العديد من المحافل بالتيار التيوصوفي تأثراً واضحاً. وكانت قد صدرت بعض الانتقادات خصوصاً من قِبل «محفل فرنسا الأكبر» ضد «الحق الإنساني» متهمة إياه بأنه أصبح متشيعاً بوضوح للجمعية التيوصوفية. بالطبع هذه التأكيدات لم تكن خالية من التحيُّز خصوصاً أن غالبية مشاغل الاتحاد الفرنسي ظلت بعيدة لا بل

معادية للأفكار التيوصوفية. بيد أن توضيح الموقف قد أصبح ضرورياً، حين أرسل «المجلس الأعلى» إعلاناً شديد الصرامة وموجَّهاً إلى مشاغل المنظمة بأكملها بأن «الحق الإنساني» ليس مسؤولاً عن تصريحات أعضائه وممارساتهم الدينية أو المناهضة للدين. وذكَّر بأن المنظمة ليست دوغمائية. لقد جرى التنبيه عدة مرات خلال سنتي 1926 و1927 وإلى استقلال المنظمة «تجاه كل توجه خاص»، (أي بصورة ضمنية توجه الجمعية التيوصوفية). هنا تجدر الإشارة إلى أن آني بوزان نفسها قد أيدت علناً هذا الموقف.

إن تفضيل «الروحانية» في العمل الماسوني داخل «الحق الإنساني» لم يأت بالطبع فقط من تأثير التيوصوفيين، فهؤلاء هم اليوم قلة داخل المنظمة. وبعض الماسونيين البعيدين بالكُليَّة عن التيوصوفية يعتبرون أن العمل الماسوني مكرَّس بصورة أساسية للإجابة على التساؤل الروحاني. أما البعض الآخر فيعطي الأفضلية للطريقة الماسونية بما يسمح بالسعي من أجل التقدم الاجتماعي للبشرية. ومن الممكن أن تبرز داخل المحافل صعوبات عديدة ما لم يتم قبول الآراء المتناقضة واحترامها.

انطلاقاً من ذلك ورغم بعض الآراء المُبالغ فيها في هذا الاتجاه أو ذاك، فإن الموقف العام لِـ «الحق الإنساني» هو معتدل ومتسامح. لقد كان جورج مارتان بالتأكيد ملحداً وعقلانياً مقتنعاً. أما ماريا دوريسم فقد عبَّرت عن أفكارها في نص يتناول «التصورات الميتافيزيقية والتسامح»، وذلك على هذا النحو: «بالنسبة إليَّ فأنا روحانية... وأفهم منطقياً إوالية الكون بعلَّة واعية أكثر منه بسبب لاواعٍ. وعقلانياً لا يبدو لي أن ركاماً عَرَضياً من الجزئيات كان قادراً على تكوين الوعي البشري. وإنني أجد صعوبة في الإيمان بأن قوى عمياء استطاعت البرهنة عن هذا القدْر من الذكاء في

تنسيقاتها. وبما أن عدم وجود الله لم يُثْبَت إجمالاً بقدْر ما لم يثبت وجوده، فلذلك أفضِّل تبني الاحتمال الأخير دون أن تأخذني الأوهام. أعلم جيداً بأنني أقف على ميدان من الفرضيات وبأن كل شخص له الحق في اختيار تلك التي تناسبه».

ولقد ختمت قولها بما يعكس القناعة العميقة للمنظمة الماسونية ـ الحق الإنساني: «إن النية في تعنيف الضمائر والتخيل في إمكان إثبات الأشياء بالمراسيم والمنشورات، وفي أنه يكفي فرض وجودنا كي يؤمن بنا الآخرون، هو مجرد صلافة». إذن فالدوغمائية هي ما يجب محاكمتها في الماسونية، سواء كانت دينية أم مناهضة للدين. لذلك كان للمحافل دائماً وبحسب توجهاتها إمكانية إهداء أعمالها لـِ «مجد مهندس الكون الأعظم» و/ أو لـِ «مجد الإنسانية». هذا الدعاء الأخير أصبح ومنذ العام 1976: «من أجل تقدم الإنسانية».

يعرف الماسوني وفي معظم المحافل أن البحث الروحاني لا يتعارض مع سلوك المواطَنة. فمنذ البداية دل المحفل رقم واحد على الطريق بمقاربته لمسائل سياسية واجتماعية راهنة خلال أعماله، مثل: حق الاقتراع، عمل النساء في المصانع، الإدمان على الكحول... إن التقارير لم تكن تنطوي أبداً على يقينيات عقيمة بل أنها تعبِّر عن أمل في التقدم مبني على التسامح.

2 ـ الانشقاقات

1 ـ الانشقاق المؤقت 1913

عندما برز الانشقاق الأول عام 1913، الذي أدى إلى نشوء تابعية جديدة تحت اسم «المحفل المختلط الاكبر» لم تكن المحافل

الفرنسية في المنظمة الماسونية ـ الحق الإنساني قد انتظمت بعدُ في اتحاد مستقل.

منذ 1910 ارتسم في ثنايا المحافل الفرنسية تيار يعبِّر عن الرغبة في أن يُسمح لها بإدارة شؤونها بنفهسا تاركة لِ «المجلس الأعلى» سلطة المساررة فقط. ففي عام 1908 أنشأ لويس غوازيو اتحاداً أميركياً قد نال استقلالية حقيقية عن «المجلس الأعلى». لقد قُبلت هذه المبادرة رغم أنها لم تنص عليها أنظمة المنظمة. كان هذا هو النموذج الذي ألهم المحافل الفرنسية الراغبة في الحصول على نفس امتيازات الولايات المتحدة الأميركية.

في هذا التاريخ كان لفرنسا ولمستعمراتها حوالى ثلاثين مشغلاً، يعيِّنون كل سنة نوابهم ويجتمعون في جمعيات تسمى مؤتمرات أو جمعيات عمومية لمناقشة مشاكل المجتمع. إلاّ أن هذه الاجتماعات ظلت غير رسمية والمشاغل كان في إمكانها تقديم الاقتراحات لتعديل أداء المنظمة، ولكنها لا تملك السلطة التشريعية نظراً لأن جميع القرارات تعود إلى «المجلس الأعلى».

عام 1911 وُجِّهت الدعوة لانعقاد جمعية عمومية للمحافل الفرنسية بدون إذن رسمي وبناءً على مبادرة ستة محافل. كان الهدف هو إعطاء المحافل الفرنسية استقلالية معيَّنة، وذلك بتزويدها بمجلس تشريعي وبلجنة تنفيذية دائمة والتي أصبحت اليوم الهيئات الخاصة بالاتحاد القومي. لقد انتخبت بلانش لانتوان (Blanche Lantoine) رئيسة لهذه اللجنة. أما المحركون الرئيسيون لهذا الانشقاق فكانوا الإخوة والأخوات: فالنتان، لوفاسور، روسو، وبلانش لانتوان وزوجها ألبير (Valentin, Levasseur, Rousseau, Albert et Blanche Lantoine).

إن هذا الأخير (1869 ـ 1949) كان أيضاً عضواً في محفل

فرنسا الأكبر وكان أديباً ومؤلفاً للعديد من الكتب، وأخصها «**تاريخ الماسونية الفرنسية**». لقد أدان «المجلس الأعلى» هذه المبادرة. ففي رأيه أن السلطة البعيدة للمجلس الأعلى هي أقل قسرية للمحافل مما هي عليه سلطة البِنى القومية. من جهة أخرى، فعالمية المنظمة مهددة بصدامات محتملة بين البنى القومية لعدة بلدان، وهذا حيثما يوجد تمثيل لِـ «الحق الإنساني». لكن لم يكن أي اتفاق ممكناً. إلا أن التابعية الجديدة احتوت فقط على 4 محافل أثناء تشكُّلها، وذلك في مدن باريس والهافر «Havre» وايفرو «Évreux» وليل «Lille» الفرنسية. لقد أُعلن إنشاء المحفل المختلط الأكبر وذلك أمام التابعيات الذُكورية الفرنسية في 15 كانون الثاني/يناير 1914. لكن وفاة بلانش لانتوان في 27 تشرين الثاني/نوفمبر 1915 والأحداث المرتبطة بالحرب العالمية الأولى جعلت بقاء هذه التابعية أمراً مستحيلاً. في آذار/مارس 1922 وبعد إنشاء الاتحاد الفرنسي التحقت المحافل المنشقة لِـ «الحق الإنساني».

2 ـ الانشقاقات الأخرى

ظهرت انشقاقات أخرى في عدة بلدان (بريطانيا، سويسرا، الولايات المتحدة الأميركية)، وقد كانت الأسباب متنوعة وترتبط غالباً بمشاكل تتعلق بالأشخاص أو بالأداء.

كانت هذه حالة الاتحاد الفرنسي مثلاً عام 1973، لثاني مرة في تاريخه. لقد برزت هذه الأزمة في وقت كانت فيه الماسونية الفرنسية لِـ «الحق الإنساني» في أوج انطلاقها. أما الأسباب العميقة لهذه الأزمة فكانت بلا شك متنوعة، هذا دون التقليل من إشكالات المنافسات الشخصية. هنا وفي الأصل يمكن تلمس

اختلاف في التصور داخل التنظيم البنيوي لـِ «الحق الإنساني». فالمنشقون، ومنهم إليان برو (Éliane Brault) كانوا يعتبرون أن نفوذ الرتب العليا في إدارة المنظمة هو في غير محله. فالمحفل الأعظم المختلط العالمي، والذي تبوأت إليان برو فيه منصب «المعلم الأعظم» الأول قد ولد من هذا الانشقاق، إن هذه التابعية لم تحتفظ بمبدأ التواصل المساراري الذي ظلَّ أحد مميزات «الحق الإنساني». هذا المحفل يعمل بحسب الطقس الفرنسي المطبَّق في الشرق الكبير لفرنسا.

3 ـ صعوبة اعتراف التابعيات الأخرى

إن إنشاء «منظمة مختلطة» حقيقية حيث يتجاور الرجال والنساء فعلاً على قدم المساواة عند أعمدة الهيكل قد حدث في وقت لم تزل فيه العقليات أبعد من أن تكون مستعدة لقبول انعتاق المرأة.

إن إحدى العقبات التي تجعل من الاعتراف بـ «الحق الإنساني» إشكالية كانت في تركه للماسونيين حرية الضمير الكاملة في موضوع الإيمان بإله خالق (إن نقطة العلام 19 من «ماكييه» تفرض الإيمان بـ «مهندس الكون الأعظم»). أخيراً أثارت أيضاً العلاقات بين «الحق الإنساني» وبين الجمعية التيوصوفية تساؤلات عند بعض التابعيات.

لذلك وفي أيلول/سبتمبر 1921 وافقت الجمعية العمومية للشرق الأكبر لفرنسا على توقيع بروتوكول وفاق مع «الحق الإنساني». ولقد قبلت التابعيتان هذا البروتوكول في كانون الثاني/يناير 1922. ووقع الاتفاق باسم «الحق الإنساني» أوجين بيرون (Eugène Piron) (1863 ـ 1928) الذي أصبح «المعلم

الأعظم» للمنظمة سنة 1918، وتمَّ تبادل ضمانات الصداقة. ورغم التشهير الظرفي في عام 1930 بهذا الاتفاق فقد ظلت العلاقات وثيقة بين التابعيتين.

في سنة 1923 طلب أحد مشاغل «محفل فرنسا الأكبر» وهو «الجبل» الاعتراف بـ «الحق الإنساني». بعد نقل هذا التمني إلى أربعين محفلاً من التابعية أصدر المجلس الفيدرالي عام 1926 قراره بالرفض. أما اليوم فإن الوضع يسير نحو التقدم. فلقد حصل في 10 آذار/مارس 2002 لقاء بين التابعيات الثلاث في رَيكياڤيك «Reykjavik» في إيسلندا. فوقَّع «محفل فرنسا الأكبر» بروتوكولاً قرَّر فيه الاعتراف بكل الفيديراليات والمحافل المرجعية والريادية من «الحق الإنساني» في البلدان التي استقرَّت فيها كمتفاوضة معه. ولقد اعترفت علناً بالصفة المساررية لإخوة وأخوات المنظمة. ولكن ظلَّ الأخوة من «الحق الإنساني» وحدهم المخولين للمشاركة في أعماله.

إن الاتحاد الفرنسي لِـ «الحق الإنساني» يقيم أيضاً بعض العلاقات بالمحفل النسائي الأكبر لفرنسا وبالمحفل المختلط الأكبر لفرنسا وبالمحفل الأكبر التقليدي والرمزي «أوبرا»، وكذلك المحفل القومي الفرنسي وبالمنظمة المسارريـة والتقليدية للفن الملكي أيضاً. أما في البلدان الأخرى حيث المنظمة متجذرة فهي تقيم بشكل عام علاقات بالقوى الماسونية المحلية الأخرى.

4 ـ اعتداءات خارجية: نموذج الاتحاد الفرنسي

إن اختيار مَثَل الاتحاد الفرنسي له تفسيره بأن القارئ يألف أكثر تاريخ بلدنا فرنسا. إلا أن الماسونيين في إيطاليا

وألمانيا وإسبانيا والبرتغال عرفوا كذلك شروط حياة صعبة. بالتالي تعددت الاتحادات والمحافل المرجعية أو الريادية التي نالت منها أحداث هذا القرن.

لقد نشأ «الاتحاد الفرنسي» بُعيد نهاية الحرب العالمية الأولى. وكانت المحافل قد قاست كثيراً ويلات هذا النزاع الفظيعة. أما مرحلة ما بين الحربين العالميتين فقد سمحت بازدياد كبير لعديده، ولكن الأحداث التي ضربت تلك الحقبة لم تكن بدون عواقب بالنسبة للماسونيين الفرنسيين في «الحق الإنساني»، بالإضافة إلى أن الحرب العالمية الثانية قد أصابته بضربة كادت أن تقضي عليه.

1 ـ صعود الفاشية في سنوات 1920 ـ 1930

إن نهاية عشرينيات وثلاثينيات من القرن الماضي قد سجلت تغيُّرات عميقة في المشهد القومي والدولي. إنها الحقبة التي أمسك فيها لوسيان ليفي (Lucien Levi) ثم هنري بوتي (Henri Petit) بمقدرات المنظمة والاتحاد الفرنسي لـِ «الحق الإنساني». نظراً إلى كون «الحق الإنساني» منظمة دولية، فإن قيام الفاشية الموسولينية في إيطاليا منذ سنة 1922، وقيام النازية في ألمانيا منذ عام 1933 وظهور الديكتاتوريات اليمينية في العديد من الدول الأوروبية أدَّيا إلى بروز صعوبات كبيرة أمام المحافل المتجذرة في هذه البلدان.

لقد قاوم الاتحاد الفرنسي بعزم هذه الصعوبات منذ أن أصابت هذه الأنظمة التوتاليتارية ولأول مرة الماسونية. كان لهذه الاحتجاجات وزنها الكبير لأن رئيس المجلس القومي هو في

الوقت نفسه «المعلم الأكبر» للمنظمة. أما في إيطاليا فبعد أن تسلَّم موسوليني (Mussolini) الحكم أدان المجلس الأعلى الفاشي أفكار الماسونية. وتعرضت التابعيات إلى حملة صحفية عنيفة. وفي 14 أيلول/سبتمبر 1923 أرسلت الجمعية العمومية رسالة تعاطف لهذا الاتحاد الشقيق. وفي ألمانيا عارض الإخوة والأخوات في «الحق الإنساني» فوراً استلام هتلر السلطة في كانون الثاني/يناير 1933. وفي 2 نيسان/أبريل، أرسل المجلس القومي إلى جمعية الأمم احتجاجاً حاداً على الهجمات التي تشن في ألمانيا النازية ضد الديموقراطيين واليهود. وساعدت محافل أوروبا الشرقية ضحايا الاضطهادات الهتلرية، وأدانت الجمعية العمومية لعام 1933 النظام الهتلري. بين عام 1933 و1934 وضعت مسألة الأعراق قيد الدرس في المحافل، وقد أكدت الجمعية العمومية لعام 1937 بقوة رفض وجود أية تراتبية عرقية.

عام 1934 وعندما كانت فرنسا مهددة بمكائد اليمين المتطرف ظهرت قضية ستافيسكي (Stavisky). لقد استطاع هذا المغامر تحقيق ألاعيبه بفضل دعم بعض البرلمانيين الراديكاليين الذين كان من بينهم بعض الماسونيين. لقد استُخدم هذا الحدث كحجة للمظاهرة التي جرت في 6 شباط/فبراير 1934، التي نظمتها روابط اليمين المتطرف وتحولت إلى أعمال شغب. فتوسعت الحملة الضخمة المناهضة للماسونية، ولجأت التابعيات الماسونية «الشرق الأكبر لفرنسا» و«محفل فرنسا الأكبر» لشطب الإخوة المتورطين في الفضيحة من المحفل. «الحق الإنساني» من جهته لم يقلِّد تلك المحافل، ولكنه اضطر إلى شطب عضو واحد قد انتسب مؤخراً إلى الاتحاد. بالإضافة إلى ذلك توقفت عمليات المساررة بعض الوقت من أجل تجنب أي اختراق من اليمين المتطرف.

2 ـ الروابط بالأحزاب اليسارية

إن روابط الماسونية عامة و«الحق الإنساني» خاصة بأحزاب اليسار هي خالية من أي التباس.

فعندما نبذت فرنسا خلال الانتخابات التشريعية التي جرت عام 1924 الأكثرية اليمينية المنتخبة عام 1920 المسماة «الغرفة الزرقاء الأفق» ابتهج «الحق الإنساني» بانتخاب أكثرية مؤلفة من الراديكاليين ومن الاشتراكيين والتي عُرفت بـِ «كارتل اليساريين Cartel des Gauches». في عام 1936 كان انتخاب أكثرية أُطلق عليها اسم «الجبهة الشعبية»، وهي مؤلفة من مجمل أحزاب اليسار ومن ضمنهم الشيوعيين، قد أيقظ داخل «الحق الإنساني» كما في القسم الأكبر من البلاد الأمل والحميَّة. وكانت الجمعية العمومية لعام 1936 قد طلبت من الحكومة الجديدة للجبهة الشعبية الالتزام بتحقيق برنامجها بالكامل ووجهت إليها التهاني لأنها عيَّنت في داخلها بعض النساء. على هذا النحو وفي الوقت الذي لم يكن فيه للنساء حق الانتخاب بعدُ، عيَّن ليون بلوم (Léon Blum) [رئيس الوزراء]، على سبيل المثال، إيرين جوليو كوير (Irène Joliot-Curie) وكيلة وزارة للبحث العلمي. في هذا الإطار نذكِّر هنا أيضاً بأن مارك روكار (Marc Rucart) (ولد عام 1893 وحصل على مساررته سنة 1916 في محفل فرنسا الأكبر وانتسب إلى «الحق الإنساني» في عام 1928. كما كان المستشار القومي للاتحاد الفرنسي لعام 1933 وفي سنة 1934 دخل إلى «المجلس الأعلى» حيث أصبح رئيساً للقضاة ووزيراً للعدل) قد عهدت إليه حكومة بلوم بحقيبة وزارة العدل ثم وزارة الصحة في حكومتَي شوتان ودالادييه (Chautemps, Daladier).

غير أن العلاقات مع الحزب الشيوعي منذ عام 1922 كانت صعبة. في هذا التاريخ وأثناء المؤتمر الثالث للبلاشفة، أعلنت الأممية الثالثة (كومنترن Komintern) أن الانتماء إلى الماسونية (وإلى رابطة حقوق الإنسان) لا يتوافق مع الشيوعية. إن زينوفييف (Zinoviev) أحد رفاق لينين (1870 ـ 1924) هو الذي فرض على المناضلين ما سمي «الشرط الثاني والعشرون» (إن انتساب الأحزاب الاشتراكية إلى الأممية الثالثة (الكومنترن) عام 1919 كان يتضمن 21 شرطاً)، بترك الماسونية ورابطة حقوق الإنسان، إذ إن هاتين المؤسستين كانتا تُعتبران ذات روحية بُورجوازيَّة.

كما هو معلوم، فإن العديد من المهاجرين الروس ضحايا ثورة 1917 التجأوا إلى فرنسا، فأنشأ من أجلهم اتحاد «الحق الإنساني» في سنة 1927 محفل «أفرورا Avrora» الذي يعمل باللغة الروسية.

3 ـ السير نحو الحرب

في فرنسا حاول اليساريون من رجال ونساء إنقاذ السلام حتى نهاية المطاف، وأحياناً على حساب الوضوح. لقد برهن دائماً ماسونيو «الحق الإنساني» بقوة عن هذه الإرادة. بالفعل إن «الحق الإنساني» المسالم بطبيعته ونتيجة تنظيمه الدولي يتموضع بالتحديد فوق الأحكام المسبقة القومية أو العرقية. عندما افتُتح المؤتمر العام لنزع السلاح في جنيف عام 1932 كانت الجمعية العمومية الماسونية في عام 1931 قد صوَّتت على «النزع الشامل للسلاح» كمسألة اجتماعية قد جرت معالجتها أثناء السنة الماسونية 1931 ـ 1932. هَاكُم نتائج هذا العمل: «إن ماسونيي

الاتحاد الفرنسي المجتمعين في الجمعية العمومية القومية في 24 أيلول/سبتمبر، يعلنون وبتصميم بأنهم سلميون ومؤيِّدون نزعاً عالمياً وكاملاً للسلاح ويندّدون بالأخطار الناجمة عن سياسة زيادة التسلح والدعاية السياسية القومية والأحلاف والمعاهدات السرية ووسائل الإبادة العلمية...». لقد سجلت سنة 1933 الضربة القاضية لمؤتمر جنيف ولآمال الماسونيين. إذ بعد مُضيٍّ عدة أشهر انسحب هتلر من المؤتمر وتبعته بعض البلدان المشاركة... فتوقفت بذلك معركة نزع السلاح.

إن جعل الحرب مستحيلة يمكن التوصل إليه أيضاً شرط أن يرفض الناس القيام بها. فمنذ سنة 1932، وقد يكون في خضم حركة أمستردام - بلييل «Pleyel»، فإن «الحق الإنساني» أيَّد معارضة الخدمة العسكرية، وهي معارضة غير شرعية قد حاول الحصول على الاعتراف بها بحسب القانون في فرنسا وإزاء جمعية الأمم. في عام 1933 طلبت محافل جنوب فرنسا تأسيس الخدمة المدنية الطوعية والمجانية بدلاً من الخدمة العسكرية.

في عام 1938، كتب الأخ أورياك (Hauriac) أمين السر العام الأكبر للمجلس الوطني في تقريره ما يلي: «لقد لفتت مشكلة السلام أنظار الجميع بصورة عامة واستثنائية. ويجب أن لا ندخر أيَّ جهد في سبيل المحافظة على السلام، هذا السيد الصالح، وذلك لإبعاد شبح الحرب، هذا الوحش المقيت». لقد تمَّ التلفظ بهذه الكلمات في 23 أيلول/سبتمبر أي قبل بضعة أيام من انعقاد مؤتمر ميونيخ، حيث أيَّد قادة الديموقراطيَّات الغربية أدولف هتلر حول مسألة «السوديت» معتقدين أنهم بذلك سوف يتجنبون الحرب...

لقد جاء في التقرير الاجتماعي لعام 1938 أن «الحق الإنساني» وبفعل وجوده بحد ذاته لا يمكنه أن يقبل الحرب، بالتالي، فهو يحتقر السفسطة التي تدَّعي أن الحرب لا مناص منها من أجل إيقاف هتلر والفاشية الدولية. هكذا، فقد ظل الإخوة والأخوات في «الحق الإنساني» وحتى اللحظات الأخيرة يؤمنون بإمكانية الحفاظ على السلام. وأعلن «المعلم الأكبر» هنري بيتي أمام الجمعية العمومية في 24 أيلول/سبتمبر 1938 أن الهيئات العليا للمنظمة قد وجَّهت إلى رئيس جمهورية الولايات المتحدة فرانكلين روزفلت برقية لدعم السلام.

هذه الإرادة الراسخة لمنع الحرب، التي قد تُعتبر عنيدة أو ساذجة في وقت كانت فيه الدكتاتوريات الأوروبية واليابانية تحضِّر أسلحتها، أليست مدعاة إلى التساؤل؟ ولكن ذاك الإيمان لا يترك أي مكان للمحاباة مع هذه الأنظمة التسلطية. لذا أعادت الجمعية العمومية لعام 1938 التذكير بالدعم المادي والمعنوي الذي يقدمه «الحق الإنساني» للاجئين الإسبان ضحايا الحرب الأهلية وقمع فرنكو (Franco). وفي السنة نفسها أرسلت كلمة تعاطف إلى الرئيس بينيس (Benés) وإلى الأمة التشيكوسلوفاكية. أخيراً، اقترح أحد القرارات إقصاء الماسونيين الذين يوافقون على الدكتاتورية أو على مبدأ التفوق العرقي.

4 ـ الحرب العالمية الثانية

لقد نالت الحرب العالمية الثانية وبقسوة من جميع التابعيات الماسونية. إن «الحق الإنساني» لم يُستثن هو أيضاً. فقد أعلن النظام الفيشي حل الجمعيات الماسونية. وفي 27 حزيران/يونيو 1940 أي بعد خمسة أيام من توقيع الهدنة مع الجنرال بيتان

(Pétain)، أقفل الألمان بالشمع الأحمر مقرَّ المركز الرئيسي للمنظمة والاتحاد الفرنسي، في 5 شارع جول - بروتون. فنهب الهيكل بصورة كاملة وصودرت الوثائق. أخيراً، في 27 شباط/ فبراير 1941 أعلنت حكومة فيشي البطلان القانوني للاتحاد الفرنسي «الحق الإنساني»، غير أن السلطات الماسونية كانت قد طلبت منذ عدة أشهر من المحافل الامتناع عن أي اجتماع علني.

انخرط أعضاء «الحق الإنساني» في حركات المقاومة ليعبِّروا بهذه الطريقة عن رفضهم الطبيعي لطروحات المحتل العنصرية والقيم المناهضة للجمهورية وللديموقراطية التي نشرتها ألمانيا النازية في أوروبا وحكومة فيشي في فرنسا. إننا نشير بهذا الخصوص إلى حالة مارك روكار (Marc Rucart) صاحب الدرجة العليا في المنظمة، فلقد رفض في آب/أغسطس 1940 توقيع القَسَم الذي فرضه فيشي فتمت تنحيته عن مسؤولياته كمستشار عام لمنطقة الفوج.

بالنسبة لفرنسا كانت الوثائق لبليغة، فدراسة ملفات الرجوع [العودة إلى الماسونية بعد إبعاد قسري] لأعضاء 24 محفلاً (من أصل 70 محفلاً قائماً قبل عام 1939) يسمح بإقامة بيان تقييمي خاص بمدن باريس وتور «Tours» ولافال «Laval» وسومور «Saumur» وأَنجيه ونانت «Nantes» وروان «Rouen» وبوردو «Bordeaux» وليل «Lille» وتروا «Troyes» ولِيُون «Lyon» ونيس «Nice» (ثلاثة فقط من هذه المحافل كانت في المنطقة الحرة). في عام 1938 كان تعداد أعضاء مجمل هذه المحافل 1060: توفي منهم 58 بين 1938 و1946 و15 قُتلوا في المنفى أو أُعدموا بالرصاص. ومن أصل 987 من الباقين تشهد ملفات 160 منهم على أعمال مقاومة (حوالى 16 بالمئة من الاتحاد الفرنسي). يجب تناول هذه الأرقام بحذر إذ أن بعض الأعضاء لم يطلبوا أبداً

الرجوع إلى المحافل. لذا فإننا لا نعلم ما هي نشاطاتهم أثناء الحرب. إن الملفات المدروسة تكشف عن «عقلية مقاومة». فالمؤيدون للمقاومة كانوا يعملون بشكل يومي في كل أوروبا وتحت أشكال متنوعة: مساعدات مادية، إيواء من هم مطرودون، يهوداً كانوا أم غير يهود، وأيضاً دعم مقدم لشبكات المقاومة. كما وُزعت المناشير والجرائد السرية، وطُبعت بطاقات الهوية المزورة، ونُقلت المعلومات.

انخرط البعض الآخر بشكل أكثر فعالية في الحركات والشبكات السرية: يشهد على هذا الانخراط 65 ملفاً. لقد اتجه ماسونيو «الحق الإنساني» في غالبيتهم نحو حركتين هما: الجبهة القومية و«التحرير ـ الشمال». أنشئت الأولى عام 1941 من قِبل الحزب الشيوعي الفرنسي، وكانت تسعى إلى الانفتاح على جميع التيارات السياسية، منصرفة عن (الكومنترن Komintern). وبعد أن انزعج الشيوعيون طويلاً من الميثاق الألماني ـ الفرنسي دخلوا بكثافة في النضال ضد ألمانيا على أثر هجوم أَدولف هتلر على الاتحاد السوفييتي في حزيران/يونيو عام 1941. وهنا يمكننا أن نتساءل عن السبب الذي دفع ماسونيي «الحق الإنساني» إلى الالتحاق بهذه الحركة في حين كانت معروفة الصعوبات التي وضعت الحزب الشيوعي في مواجهة الماسونيين إبَّان الفترة التي سبقت الحرب (الشرط 22). هنا يوجد تفسيران ممكنان: الأول، هو أن الحزب الشيوعي قد طور منذ خريف 1942 وتحت إلحاح ستالين نفسه إِسْتراتيجيَّة تحالف من نوع «الجبهة الشعبية» مع النقابيين والاشتراكيين، مجمداً بذلك «المطالب الثورية» لصالح العمل المباشر. وفي 4 تشرين الأول (أكتوبر) 1944 تراجع الحزب الشيوعي عن «الشرط 22» وذلك بسبب العلاقات التي توطّدت إبَّان

الحرب بين الشيوعيين وبين الماسونيين، خصوصاً في بعض معسكرات الاعتقال حيث وُجدوا إلى جانب بعضهم بعضاً، كما في راڤنسبروك «Ravensbruck» مثلاً. أما التفسير الآخر، فيكمن في فعالية الشيوعيين، فابتداءً من 1942 كان حضورهم الفعال على الأرض قد جعل الانقسامات ذات الطابع السياسي في غير محلها.

مهما يكن من أمر، فإن الماسونيين الذين لعبوا دوراً بارزاً داخل حركة المقاومة هذه كانوا كثراً. ففي بوردو كان ريمي بوايو (Rémi Boyau) مسؤولاً عن عدة مجموعات من المقاتلين في منطقة هو ـ ميدوك «Haut-Médoc». يمكننا ذكر أسماء أخرى مثل الأخ غاجول (Gajol) في روان، وراوول هيدمان (Raoul Hiedmann) وكاميل كلاڤييه (Camille Clavier) وإدوار غيستا (Édouard Gesta) في باريس، ومارسيل برسيل (Marcelle Persille) في ليل، وشارلوت روبان (Charlotte Robin) في ليون.

(Gajol, Raoul Heidman, Camille Clavier, Edouard Gesta, Marcelle Persille, Charlotte Robin).

لقد كان للحركة فرعها المسلح، وهو فرقة «القناصين والمناصرين» فالأخ أندريه بروسلان (André Brucelin) (من محفل باريس، كليمنص روابيه) الموجود أثناء الحرب في مدينة غرونوبل (Grenoble)، حيث كان يملك شركة للأشغال العامة مسماة «سيريب SERB»، وضع آلياته في خدمة نقل الجيوش لحساب الفرع المسلح. فقام بنقل رجال المقاومة والمصابين والأسلحة وأمَّن بطاقات هوية جديدة للذين كانوا مهددين من قِبل «الستو STO» (الخدمة الإلزامية للعمل)...

في تموز/يوليو 1944 انضمَّ ثلثا العاملين في مؤسسته إلى الحركة المسلحة والجيش السري أو إلى الألوية الإسپانية.

أما حركة التحرير ـ الشمال فقد انضمَّ إليها ماسونيو «الحق الإنساني»: فكان مارسيل بريتيون هو «الكابتن شاربون» وكلود إيبير ابنة مارغريت مارتان كانت «باكيتا كلود» (Marcel Brétillon (le «Capitaine Charbon», Claude Hébert «Paquita Claude»، الملحقة في مكاتب التحرير ـ الشمال. في حزيران/يونيو 1944 وزعت مارغريت بيرسو (Marguerite Perceau) الجرائد؛ وشاركت ماريان فيرجيه (Marianne Verger) في لجنة العمل الاشتراكي التي تكوَّنت سنة 1941؛ وروجيه بيلار (Roger Billard) كان هو المسؤول عن جماعات فرنسا ـ الانتقام.

لقد أشرنا آنفاً إلى الدور الذي قام به مارك روكار (Marc Rucart)، فقد أنشأ في مدينة تولوز «Toulouse» المكتب الرابع للجيش السري، وساهم كعضو مؤسس في المحفل السري «باتريام ريكوبيرار» «Patriam Recuperare».

ولدى تكوين المجلس الوطني للمقاومة في 27 أيار/مايو 1943 الذي ضمَّ جميع الحركات تحت إدارة جان مولان (Jean Moulin)، كان مارك روكار هو ممثل الحزب الراديكالي لمنطقة الشمال. فبين سنتي 1939 و1942 عهد «المعلم الأعظم» هنري بوتي (Henri Petit) إلى هذا الأخ بعدة مهمات في لندن وأَمستردام والجزائر. ونذكِّر هنا بأنه انتُخب عام 1947 «كنائب المعلم الأعظم»، وهي مسؤولية ظلَّ يحتفظ بها حتى سنة 1952.

لقد أنشأ المجلس الوطني للمقاومة بُناهُ الإقليمية وهي: لجان المحافظات واللجان المحلية للتحرير التي نجد فيها ماسونيين من «الحق الإنساني» مثل كلوفيس كونستان (Clovis Constant) في نانت، وكاميل كلافييه (Camille Clavier) وإدوار جيستا

(Édouard Gesta) في باريس ولوسيان بواسان (Lucien Boissin) في أَنجيه.

كما وجد بعض ماسونيي «الحق الإنساني» داخل أجهزة «فرنسا الحرة» في لندن والجزائر. فاحتل الأخ سوڤريه (Sevré) مركزاً في اللجنة المالية للبعثة الإقليمية لمجموعة المقاومة الشعبية الفرنسية. فهنَّأه بيير منديس فرانس (Pierre Mendès France) بعمله هذا. أما الأخت ماريان ڤيرجيه (Marianne Verger) فهي عضو في الجمعية الاستشارية المؤقتة التي أُنشئت عام 1943. هذه الجمعية التي هي الجهاز التشريعي «لفرنسا الحرة» هي رمز الاعتراف السياسي بالديموقراطيَّة. والأخت مارسيل موسون (Marcelle Mossom) سكرتيرة القنصلية البريطانية في الدار البيضاء قد نظمت رحلات متخفية نحو إنكلترا. وكان عليها أن تهرب إلى الدار البيضاء ثم طَنجَه «Tanger» ثم ليشبونة «Lisbonne» وبعدها إلى إنكلترا لتلتحق بالجنرال ديغول (De Gaulle). لقد ساهمت هذه الأخت في إنشاء محفل «كونكورد الدولي» في لندن الذي أسسه اللاجئون.

5 ـ نهضة الاتحاد الفرنسي

«بالاتفاق الكامل مع المجلس الأعلى المختلط الدولي، كان المجلس الوطني للاتحاد الفرنسي هو منذ التحرير في حالة انشغال باستئناف رسمي للأعمال في مشاغلنا». جاء هذا النص في مقدَّمة المنشور المرسل من قِبل المجلس الوطني إلى رؤساء المشاغل على الأقل إلى تلك التي بقي لها أثر منذ أعوام 1944 ـ 1945. لقد كرَّم المجلس الوطني في هذا المنشور ضحايا الاضطهاد الألماني وحكومة فيشي وحيًا الذين استطاعوا مواجهته

كما حدد القواعد التي يجب أن تسبق استئناف أعمال المحافل. ولكن مع الأسف لم يسجل تاريخ لهذا المنشور.

ولقد تقرر فيه أن «كل أخ أو أخت يطلبان استعادة مكانهما على أعمدة الهيكل عليهما أن يسلِّما إضبارة تُعتبر كطلب الرجوع، وعليها قَسَم يمين نموذجي مكتوب بخط اليد في أسفل هذا الطلب».

إن إحدى أُوْلَيات استمارات الرجوع تعود إلى تاريخ 20 تشرين الاول/أكتوبر 1944، وقد كتبها ماريوس ديبورد (Marius Desbordes)، الذي كما هو معلوم قد استقبل عنده الاجتماع الاول للمجلس الوطني في 2 أيلول/سبتمبر 1944، يوضح هذا المنشور أن كل أَضابير الاتحاد قد «أُتلفت» بلا شك بين 12 أيار/مايو و27 حزيران/يونيو سنة 1940، وهو تاريخ ختم المَقَارّ بالشمع الأحمر من قِبل الألمان. لذا اعتبرت هيئات محفلنا وكذلك محافل التابعيات الماسونية الأخرى أن جميع الماسونيين عليهم أن يمروا بمسار الرجوع. لماذا هذا الخيار؟ إن الرجوع[13] يطبَّق على الماسوني الذي شُطب أو أُقصي على أثر محاكمة، والذي قد قررت الهيئات المعنيَّة إنقاذه من هذا العقاب. كان من الممكن افتراض أن الأعضاء هم مدعوون بالأحرى إلى «استئناف النشاط»، وهي عبارة مستخدمة عندما يتعلق الأمر بأخ مستقيل «قد طلب استعادة القوة والحميَّة». إن هذا الخيار يعكس بالطبع الإرادة التي عبَّرت عنها هذه الهيئات في الاحتفاظ لنفسها بحرية قبول أو رفض الأعضاء الذين يطلبون استئناف نشاطاتهم الماسونية.

وهكذا أُرسل بعض الماسونيين، الذين بقوا في الحقيقة على صلة خلال سنوات الاحتلال، إلى المجلس الوطني للاتحاد

الفرنسي طلباتهم من أجل إعادة فتح محفلهم. نشير هنا إلى محفل «جورج مارتان» في باريس الذي كان من بين المحافل الأولى التي أبدت تلك الرغبة. ففي 22 أيلول/سبتمبر 1944 وبعد عشرين يوماً من الاجتماع الأول للمجلس الوطني طلب أحد عشر أخاً وأختاً إيقاظ المشغل. وبين شهري أيلول/سبتمبر وكانون الثاني/يناير 1945، وهو التاريخ الذي أعطى فيه المجلس الوطني الإذن باليقظة، ملأ المتقدمون إحدى عشرة استمارة طلب الرجوع ووقَّعوا القَسَم. لقد أُعطي الإِذن في 24 كانون الثاني/يناير من السنة المذكورة. ترتب على هذه الموافقة رجوع الأعضاء المصرَّح لهم بإيقاظ المحفل. إلا أن المساررة لم تكن بعدُ مسموحة، ولم تُستأنف إلا في أيار/مايو 1945. في 30 كانون الثاني/يناير من السنة التالية لفت منشور المجلس الوطني الانتباه أيضاً للحذر الذي يجب توخيه أثناء الشروع في عملية الاختيار «غداة سنوات فظيعة قد قاسينا منها الكثير». في كل الحالات لقد أُعطي هذا الإذن تحت مسؤولية «المعلم الجليل» أو الناظر الأول إذا خلا ذاك المنصب كما جرى في محفل «ماريا دوريسم» المستأنف أعماله تحت مسؤولية الأخ كاريه (Quarré)، بالنيابة عن «المعلم الجليل» نووليرز (Nauwelaers)، الذي كان ما يزال مجنداً عند إعادة افتتاح المحفل في 26 كانون الثاني/يناير 1945. ولكن طرحت مشكلة المحافل التي لم تسترجع بعد قواها كي تتمكن من متابعة أعمالها. لذا «أدمج» أعضاؤها في المحافل الأكثر قرباً؛ إذ أشار المنشور السابق بشكل محدد إلى أنه: «عندما يوجد في «الشرق» نفسه عدة محافل وبعضها غير مصمم على أن يعاد فتحه، فعلى أعضاء كل منها الراغبين في أن يُقبلوا مجدداً في الماسونية أن يتقدموا ككتلة واحدة إلى المشغل نفسه، وهذا بدوره يوجه الطلبات المستلمة إلى المجلس الأعلى ويلتمس إذناً بدراستها. هذه الطلبات يجب أن

يؤشر عليها «الجليل» أو الحَبْر الذي ينوب عنه في المحفل المعلق، وهذا الأخير عليه أن يذكر للمجلس الوطني الدوافع التي تبرر إقفال المحفل».

وما أن يعود المحفل إلى أدائه الطقوسي فيمكن عندها متابعة تقديم طلبات الرجوع. فإن الأخ أو الأخت كان لزاماً عليهما أن يُقدِّما طلب الرجوع إلى المحفل الذي كانا ينتميان إليه قبل الحرب. فمجمع أحبار المحفل يدرس الطلب ويُصدر «المعلمون» قراراً معللاً بعد قراءة التحقيقات النظامية واستمارة الرجوع. فيرسل إلى المجلس الوطني القَسَم الذي وقّعه المريد وقرار المحفل ولا يصبح الرجوع نافذاً إلاّ بعد موافقة هذا الأخير.

لم نتمكن هنا من دراسة أيٍّ من «هذه التحقيقات النظامية»، التي هي في حوزتنا (ثلاثة بحسب أندريه كومب (André Combes))[14]، ولكننا نعلم في المقابل ما هي القواعد التي كان يجب اتباعها، وقد نبَّه لها المنشور الذي أشرنا إليه آنفاً: «إن الإخوة والأخوات من كافة الدرجات والذين لا لَبْس على نظاميتهم وظلوا أوفياء لمثالنا الأعلى سيرجعون بدون صعوبات، ... وسيتم إقصاء أو إرجاء قبول الأعضاء غير المرغوب في وجودهم... وعلى الأخص كل الإخوة والأخوات الذين أعطوا للعدو أو لحكومة فيشي البراهين على دناءتهم أو على تواطئهم».

إن القرار سيصدر بدايةً عن المحفل: و«المعلمون» وحدهم لهم حق التصويت، فيجب أن يحصل المرشح على أربعة أخماس الأصوات الناخبة ولكن الرجوع لا يصبح نهائياً إلا بعد موافقة المجلس الوطني. وهكذا صدر إشعار واحد برفض الرجوع إلى محفل كليمنص روايه (Clémence Royer). إن الإشعار يصدر عن اللجنة الدائمة للمجلس

الوطني المؤلفة آنذاك من المستشارين الوطنيين للمنطقة الباريسية. وفي هذا الظرف تتحول هذه اللجنة الدائمة إلى «لجنة تطهير».

ثم لقد وجدت بعض الملفات المرفوضة. ولكنها قليلة جداً (أربعة فقط بالنسبة للمحافل الباريسية).

لا بدَّ هنا من تقديم ملاحظتين:

- إن الملفات المتنازع فيها هي دائماً تلك التي يرفضها المجلس الوطني الذي يحرص بلا شك على عدم المجازفة بإرجاع عضو كان تصرفه خلال الاحتلال مدعاةً إلى الانتقادات.

- إن الأعضاء الذين رُفض إرجاعهم كان لهم على الدوام مدافعون متحمسون من بين الإخوة والأخوات ما يجعل من المستحيل التأكيد اليوم على صحة الأعمال التي نسبت إليهم.

إن معظم عمليات الرجوع قد حصلت بين عامي 1945 و1946. مع هذا فقد بقيت مستمرة بشكل منتظم حتى عام 1953، وظلَّ بعضها يحصل استثنائياً حتى عام 1961.

إن أكثر من نصف أعضاء الاتحاد الفرنسي لم يجدوا طريق العودة إلى الهيكل. فالوفاة والشيخوخة والدوافع غير الكافية للمجازفة بأن ينتابهم مجدداً القلق... تلك هي الأسباب التي تفسر أن الاتحاد الفرنسي مثل سائر التابعيات الماسونية في عام 1945 بدا أنه ينزف. غير أن الجمعية العمومية الأولى لما بعد الحرب قد انعقدت في أيلول/سبتمبر 1945 تحت إدارة مارغريت مارتان (Marguerite Martin) رئيسة المجلس الوطني. لقد احتاجت النهضة إلى سنوات طويلة. ففي سنة 1953 لم يشكل عدد أعضاء الاتحاد الفرنسي سوى ثلثي ما كان عليه عام 1938.

5 ـ الإنـجـازات

1 ـ مقترحات لتحسين المجتمع

منذ أُولى السنوات التي مضت على بدءِ نُشوئه برهن «الحق الإنساني» عن اهتمامه بالمشاكل الاجتماعية والسياسية لعصره. فالمؤسسون نساءً ورجالاً ملتزمون النضال من أجل كسب حقوق جديدة وتحسين الشروط المادية للحياة. من هنا تناول المحفل رقم واحد قضايا حقوق المرأة وعمل النساء في الصناعة وجرائم ومحاكم الأطفال والإدمان على الكحول وصحة النظر وكذلك الحق النقابي للموظفين وعلاقة رأس المال بالعمل والضمان الاجتماعي وأيضاً غلاء المعيشة. كما أن العديد من المواضيع المطروحة على بساط البحث في مجمل المشاغل تعكس الحرص نفسه على العدالة والإدراك الثاقب لحقائق العصر في روحية مستقبلية.

بعد التصويت على الدستور عام 1920، تابعت الاتحادات والمحافل المرجعية هذا التعمق في إشكاليات تلك المرحلة دون أن تدَّعي يوماً بأنها تسعى إلى الحلول محل الاختصاصيين في أبحاثهم (علماء الاجتماع، الاقتصاديين والسياسيين)، لا بل مقاربة هذه المواضيع من زاوية مختلفة ومن وجهة نظر أكثر شمولاً وأكثر إنسانية، ولعلها أكثر طوباوية، أي بعبارة مختصرة من وجهة نظر ماسونية. بموازاة هذه الدراسات المنجزة التزم العديد من هذه المحافل الأعمال الاجتماعية.

إن الماسونيين ووفاءً لمبدأ الماسونية الأساسي في التسامح خصصوا له العديد من الأبحاث، هاكم بعض النماذج:

شهدت مرحلة ما بين الحربين العالميتين صعود الفاشية وعدم التسامح. لذلك ومنذ سنة 1934 عولجت مسألة «العرق والأساليب الحكومية». ونُبذت خلال هذه الدراسة فكرة الأعراق الصافية أو الأعراق المتفوقة. وتمَّ التأكيد أن العنصرية لا ترتكز على أي مستند علمي وهي تشكل خطراً دائماً يُنذر بوقوع الحروب، خصوصاً عندما يتغذى البغض بين السكان بمهارة. في عام 1850 وبالروحية نفسها جرى التعمق في «إعلان حقوق الإنسان لعام 1948»، وفي عام 1987 سعت الجمعية العمومية إلى معرفة «الطريقة التي سيُهيَّأ بها مجتمع الغد المتعدد الإثنيات والمتعدد الثقافات حيث يستطيع كل إنسان عيش اختلافه داخل الأمة الواحدة؟».

إن «الحق الإنساني» هو المحفل الماسوني الأول الذي سمح للمرأة بالعمل في داخل المحفل مع نفس حقوق وواجبات الرجل. فمنذ نشوئه كان من المنطقي إذن أن يطالب لها بالتعامل نفسه داخل المجتمع. لقد قام المحفل رقم 1 وقبل الحرب العالمية الأولى بوضع جدول بالإصلاحات المرتقبة. فدرس إمكانية حصول المرأة على بعض الحقوق في الزواج والطلاق (1908). ووضع الاتحاد الفرنسي قيد الدرس مسائل تتناول ضرورة منح النساء حق التصويت وصفة المواطنة وحق التعلم وحق ممارسة بعض المهن. وجرى البحث أيضاً في واجبات المرأة في المدينة وفي المجتمع. فحتى تاريخ حصول النساء على حق التصويت سنة 1945، ضاعفت محافل «الحق الإنساني» الأعمال والمداخلات إزاء الهيئات السياسية. واليوم تسعى المحافل في أميركا الجنوبية (الأرجنتين) لجعل انقطاع الحمل المسموح به في فرنسا منذ عام 1975 مقبولاً به هناك أيضاً.

بموازاة ذلك، ومنذ عام 1908 كانت إحدى أكثر المسائل المُعالجة مراراً وتكراراً هي موضوع الأطفال والتربية. لقد جرى البحث مطولاً في موضوع الأطفال البائسين واللقطاء الذين يعاملون بقسوة. فكان هناك إذن رغبة عميقة في تغيير تنظيم الرعاية العامة للتدليل على المسؤولية الملقاة على المجتمع.

لأول مرة، وفي عام 1959 صدر عن «الحق الإنساني» القرار بإعداد «شرعة الطفل». لقد اقترحت المحافل بين سنوات 1920 ـ 1930 تمديد إلزامية التعليم من 12 إلى 16 سنة وزيادة المنح الدراسية وتأسيس متابعة صحية ـ تربوية وتطوير التوجيه المهني. بين عامي 1924 و1925 عندما كان يجري الكلام على المدرسة الوحيدة، يُقصد بها تلك التي تجمع بين التدريس الابتدائي والثانوي والجامعي.

بعد الحرب العالمية الثانية أخذ «الحق الإنساني» في الدفاع عن النموذج العَلْمانيّ. وأمام المشاكل التي طرحتها فورة الولادية «baby-boom» في السنوات التي تلت الحرب أصبحت المسألة الموضوعة على جدول أعمال المحافل عام 1962 تتناول ديموقراطية التعليم، وسنة 1963 بحث «الحق الإنساني» في صراع الأجيال. فأحداث عام 1968 طرحت هذه الأسئلة بطريقة عنيفة على المجتمع الفرنسي بأكمله. لقد ظلّ الطفل هو الذي يستحوذ على التفكير الماسوني في «الحق الإنساني» مع دراسة التربية المدنية لمواطن الغد ومع البحث الأقرب عهداً حول موضوع مؤلم هو سوء المعاملة.

إن المذابح التي سببتها الحرب العالمية الأولى 1914 ـ 1918 أدت إلى التعمق الشديد في موضوع السلام. حتى أن محفل الجزائر اقترح تدريسه في المدارس. وفي سنة 1927 بحث

الماسونيون الفرنسيون في التنظيم الدولي للسلام ورأوا أن تحول الشعوب نحو الديموقراطية هو وحده الكفيل بجعله ممكناً. فاقترح «الحق الإنساني» على جمعية الأمم بأن يترك ممثلو الأمم المكان لممثلي الشعوب (جمعية الشعوب). وجرى تقديم العديد من الاقتراحات في الجمعيات العمومية، كتقوية جمعية الأمم وحظر الحملات الصحافية الشوفينية واعتماد لغة وعملة دوليتين وإلغاء الحواجز الجمركية ومضاعفة التبادلات الثقافية، كذلك نزع شامل للسلاح وإلغاء الخدمة العسكرية الإجبارية والاعتراف بمعارضة الخدمة العسكرية وإزالة الأسلحة الثقيلة...

منذ ثلاثينيات القرن الماضي، نادى الماسونيون بتحقيق ولايات متحدة لأوروبا في منظور بعيد من أجل بناء مثالي لولايات متحدة للعالم أجمع. في سنة 1948 وضعت على جدول الأعمال مسألة «الفيدرالية»: فتمَّ التأكيد في هذا الجدول على أن التنظيم «الفيدرالي» هو وحده القادر على إنقاذ أوروبا العجوز. أثناء توقيع معاهدة روما التي وضعت أسس السوق الأوروبية المشتركة، كان «الحق الإنساني» يعالج موضوع «التكوُّن الملحّ لأوروبا»، فلتاريخٍ أقرب عهداً قدمت اقتراحات في سبيل تحضير العقليات كي يفكرَ كل واحد تعابير أوروبية ويعمل بها.

إن «الحق الإنساني» يسعى إلى تعجيل قدوم عالم جديد ومجتمع لا مكان فيه للمنفعة الفردية. كما أنه يهدف إلى إقامة المساواة الاقتصادية بين الأفراد وإحلال السلام بين الشعوب. فبعد التحرير هو ينصح بالعمل على إلغاء التروستات «les trusts» من طريق التأميمات الفعالة وبدون تعويضات، وأن يتحول ماسونيوه إلى صانعي النظام السياسي الديموقراطي العلْماني والاجتماعي الحقيقي.

خلال «الثلاثينيات المجيدة» مرَّت فرنسا بمرحلة من العمالة الكاملة، فكان تنظيم عالم العمل هو الذي يشغل محفل «الحق الإنساني». كما عالج في سنة 1964 أهمية الحركات النقابية. أخذت البطالة منذ عام 1973 تستنزف النمو الاقتصادي. إن مسائل كثيرة شهدت على الأهمية التي يوليها الماسونيون لهذه المشكلة، وذلك عبر تساؤلاتهم حول البُعد الجديد للعمل.

إنَّ الإعلام وانتقال الأفكار والأشخاص أصبحا حاجة أساسية بالنسبة للماسونيين الحريصين على التقدم والحرية. لذلك عولجت في سنة 1975 مسألة «حرية تنقل الأشخاص والأفكار»، ولكن أيضاً دون إغفال مخاطر الاتصالات: إذ في عام 1968 عملت المحافل على موضوع «شرطنة الإنسان في المجتمع الحديث le conditionnement de l'homme»، وفي سنة 1984 كان البحث هو «أنواع التلاعب السياسي بالأفكار». كما تناولت أيضاً عام 1991 «دور ومسؤولية ونفوذ وسائل الإعلام». فطرح السؤال لمعرفة كيف تصنع المعلومة وكيف يمكن الحفاظ على الحس النقدي وحرية التعبير. أخيراً وفي سنة 1995 طُرح سؤال أوسع حول دور «المالتيميديا» (وسائل الإعلام المتعددة) وحول خطر التلاعب بالحواس بواسطة الصورة الوهمية، وهي أخطار محتملة قد تهدد الديموقراطية.

كما كثرت الأعمال التي تتناول مشاكل أخلاقية كالنسالة(*) والموت الرحيم والتلقيح الاصطناعي. إنَّ مجموع هذه الدراسات تشهد على الوعي بأن المجتمع «يسير نحو أخلاقية جديدة» (1970)، أخلاقية تحاول المحافل رسم أطرها.

(*) النسالة (Eugénisme)، تعرَّف بـ «علم تحسين النسل».

إنَّ ماسونيي «الحق الإنساني» حريصون على احترام حقوق الإنسان في كل أبعادها. أحد الأمثلة الأكثر دلالةً هو موقف هذا المحفل من الاستعمار. فلا ننسى أن المحفل المختلط الأول رقم 1 قد أنشئ عام 1893، أي في مرحلة الغزوات الاستعمارية التي سمحت بتشكيل الإمبراطوريات الكبرى البريطانية والفرنسية والهولندية.

إنَّ الواقع الاستعماري ومنذ عام 1911 استرعى انتباه ماسونيي «الحق الإنساني»، هذا ما تشهد عليه المسائل المُعالَجة مثل الأفكار المتعلقة بالاستعمار، والسود والبيض، والدم المختلط. وفي سنة 1927 وضع الاتحاد الفرنسي موضوع «الاستعمار» على جدول أبحاث المحافل. في تقرير مُحايد وواعد تمَّ توضيح كل الجوانب العائدة إلى الحضور الأوروبي خصوصاً في إفريقيا؛ فأظهر الأخطاء والنجاحات، واقترح محاور للتقدم واهتم بشكل أكبر بمصير النساء: المرأة الملغاش Malgache عام 1908 والمرأة الهندوسية والتعليم العلماني للنساء التونسيات عام 1909. إن احترام الشعوب وتقاليدها هو هاجس دائم: فقد جرت مساررة سكان محليين في هانوي Hanoï في محفل كونفوشيوس وفي بور سعيد في محفل الاستقلال.

في أديار Adyar في الهند حيث أدارت آني بوزان جمعية للشبيبة الهندوسية مع الحركة الكشفية «فتيان وفتيات الهند»، فقد شجعت أيضاً على فتح محفل هندوسي. وفي سنة 1952 عبَّرت عن أمنيتها هذه في «الكومنولث الهندي» (كومنولث أوف انديان بيلز Commonwealth of Indians Bills). وأملت أن تصبح الهند من «الدومنيون dominion» أي أن تصبح جزءاً من الكومنولث البريطاني.

في فترة ما بين الحربين العالميتين ساهم النواب القادمون من محافل المستعمرات لحضور الجمعيات العمومية في إدراك

المشاكل التي سببها الاستعمار إدراكاً أكثر دقةً، وقدموا تقارير عن سعيهم الشخصي إلى تحسين شروط الحياة والعمل للمرأة هناك.

عام 1924، كانت الدراسة المقترحة هي البحث في المسألة الاستعمارية. لقد كانت الجمعية العمومية قلقة على مصير السكان المحليين فطلبت تمثيلهم في البَرلُمان، مع حق الشعب في التصويت، وقبولهم في كل المراكز الإدارية والعمل على توازن الأجور بين الفرنسيين وبين السكان الأصليين، كما طالبت بتوزيع أوسع للتعليم وإنشاء لجان صحية ومواجهة مشكلة الوفيات بين الأطفال.

بعد سنة 1945 نالت الحروب والحركات الاستقلالية من المحافل؛ فلقد انطفأ الواحد تلو الآخر، وذلك منذ سنتي 1946 و1947 في تونكون، وبعد عام 1960 في الجزائر، ثم في تونس. إلا أن الماسونيين حاولوا الصمود: ففي عام 1956 توقع محفل الجزائر إحياء مثلث وهران، وفي سنة 1961 سلَّم محفل تونس نظامه الداخلي مدوَّناً بالعربية. وفي داخل «الاتحاد الفرنسي»، ثم ضمن المجموعة الفرنسية وخاصة في إفريقيا، احتل ماسونيو «الحق الإنساني» وبصورة إفرادية وظائف رسمية وحافظوا على شكل معيَّن من الحركة. لقد كانت هذه حالة مارك روكار الذي شغل عام 1947 منصب رئيس مجلس الجمهورية لفرنسا ما وراء البحار ثم أصبح فيما بعد مستشاراً سياسياً في شاطئ العاج وفولتا العُليا (Haute-Volta). وقد قدم روكار برنامجاً لاستقلال البلدان الإفريقية.

وإذا كان الماسونيون ملتزمين بقوة أن يدافعوا عن حقوق الإنسان فهم يسهرون دائماً على القيام بواجباتهم: واجبات تجاه الأكثر ضعفاً، الأطفال والعجزة (1973)، وتجاه الأكثر حرماناً (1954)... وأخيراً يدرس «الاتحاد الفرنسي - الحق الإنساني» مفاهيم القانون والقاعدة، ويعمل على وضع برنامج مجتمعي جديد

من أجل قيام التوازن بين الممنوع وبين المسموح. هذا المفهوم للمسؤولية يطال بالطبع المشاكل البيئية أيضاً: كيف هي الأرض التي سنصنعها لأولادنا؟ (1992). في عام 2001 عولجت بنوع خاص مشكلة المياه سواء على الصعيد الوطني أم الدولي.

وهكذا يتساءل الاتحاد الفرنسي منذ حوالي القرن عن كل مسائل عصره الهامة ويحاول أن يكون حاضراً في مجادلات المجتمع الكبرى. وهو يطمح إلى أن يكون خلّاقاً وواعداً، مدركاً أن جميع قدرات الاقتراح التي يمثلها يجب أن توضع في خدمة الإنسان.

إنَّ جميع الاتحادات والمحافل المرجعية تعالج مواضيع اجتماعية تتعلق بها وتقيم فيما بينها أنواعاً من العلاقات والتبادلات. وهي تتمثّل في اللقاءات التي تجري أثناء الجمعيات العمومية الدولية أو أثناء اجتماعات الهيئات القومية. إنَّ هذا يحصل على وجه الخصوص في أوروبا وبين فرنسا وبلجيكا وهولندا وسويسرا وإيطاليا وإسبانيا. فتسمح التوأمة بتطوير علاقات وثيقة بين مشاغل البلدان المتنوعة. كما تعقد مؤتمرات دولية بصورة منتظمة إلى حد ما في مدن مثل ريكيافيك «Reykjavik» وأمستردام وأثينا.

يضع المشاركون تقارير عن المسائل المتعلقة بمجمل المنظمة الماسونية المختلطة الدولية: ففي عام 2003 عالج مؤتمر أثينا مسألة «العالمية». كما تسمح النشرات الداخلية للمنظمة بانتقال المعلومات بين المحافل: يمكننا أن نذكر على سبيل المثال طبعة «النشرة الدولية» التي تصدر كل ستة أشهر باللغتين الإنكليزية والفرنسية، وكذلك طبعة «نشرة الاتحاد الفرنسي»...

2 ـ العمل المساري

وإلى جانب المسألة الاجتماعية تعالج سنوياً جميع محافل الاتحاد الفرنسي موضوعاً رمزياً. فالماسونية هي جمعية مسارية. إنها تدعو إلى عمل عليه أن يسمح لأعضائه بالارتقاء الروحي والمعنوي. إنَّ الروحانية في الماسونية تتضمن التعمق في معنى الحياة ومستقبل الكائن البشري والإنسانية. إنه معنى التوكيد الذي على أساسه يعمل الماسونيون من أجل بناء «هيكل البشرية»، لذا فإن المواضيع المقاربة تتناول أولاً واجبات كل منهم: كاحترام الالتزامات وضرورة تطبيق القيم الماسونية في العالم الدنيوي. إن التقدم المساري يتطلب دراسة الرمزية دراسة معمقة. فلا يُقترح أي معتقد أو تعريف أو وصفة، بل أنَّ الأمر تساؤل دائم ونقد ثابت. بالطبع إن المحافل لا تكتفي بالعمل على المسائل السنوية، سواء على الصعيد الرمزي أم الاجتماعي، بل ينتج كل منها وبحسب ميوله ونقاط اهتمامه أعمالاً رمزية اجتماعية فلسفية وتاريخية.

3 ـ الأعمال الماسونية

لقد عمل مؤسسو «الحق الإنساني» داخل الحركات الاجتماعية، وذلك منذ نهاية القرن التاسع عشر. بناءً على هذا، كان «الحق الإنساني» المنشغل بمصير المرأة في أساس قيام عدة جمعيات مثل جمعية لويز كوب وماري بيكيه دو فيين (Louise Koppe, Marie Bequet de Vienne).

لقد أنشأت الأولى في العام 1891 «بيت الأمومة» في بيل فيل [باريس] حيث تمَّ إيواء الصبيان ابتداءً من عمر 3 إلى 6

سنوات والفتيات من عمر 6 إلى 12 سنة فكانوا يستقبلون في هذا المنزل، وتتم العناية بهم وأحياناً يجري إطعامهم إذا سمح الظرف بذلك. في عام 1894 استقبلت المؤسسة 804 أطفال. واستقرت في البداية في: 6 ـ جادة مونسوري (الدائرة 14 الباريسية) ثم في 26 ـ شارع مانان (الدائرة 20). وقد اعتُبرت المؤسسة ذات منفعة عامة؛ فقدمت المساعدة لعائلات فقيرة يمكنها أن تترك أطفالها أثناء الفترات العصيبة، ثم تستعيدهم فيما بعد، الأمر الذي لم تكن تسمح به من قبل مصلحة الرعاية العامة.

أما الثانية ـ أي ماري بيكيه دو فيين الملقبة بـ«راهبة الرحمة العلمانية»، فقد أنشأت مؤسسة «رضاعة الأمومة» ومأوى الأمومة. وما زال واحد منهما قائماً في 9ـ شارع جان باتيست دوما (الدائرة 17). إن هذه الجمعية تقدم العون للنساء اليائسات من أجل تجنب الإجهاض السري والتخلي عن الأطفال. كما أنَّ السلطات العامة تعترف بها، ويمكن القول بأن قانون 17 حزيران/ يونيو 1913 الذي أنشأ مصالح الرعاية الإلزامية للنساء الحاملات هو مستلهَم منها إلى حدٍّ بعيد.

لقد اعتبر ماسونيو «الحق الإنساني» دائماً أن عليهم واجب السعي من أجل تحسين المجتمعات. ولقد حاولوا تخطي الكلمات والأفكار لوضعها أبداً بالأحرى موضع التطبيق. ففي فرنسا، ساهموا في فترة ما بين الحربين العالميتين في إنشاء مأوى للعجزة الماسونيين المسنين هو «المأوى الأخوي» في أولنيه دو سانتونج «Aulnay de Saintonge»؛ وفي جمعية «نقطة الحليب»؛ وفي «اللجنة الفرنسية لنجدة الأطفال» التي تأسست عام 1919؛ وفي «بيت الطفولة» عام 1936؛ وفي مخيمات العُطْلات «كلارتيه Clarté» في أرفويه «Arfeuilles».

يجب التذكير أيضاً بأنَّ التزام «الحق الإنساني» هو حاضر في الكثير من الأعمال الاجتماعية. على سبيل المثال ومنذ بداية السبعينيات، وهي الفترة التي شهدت صعود البِطالة، ساهم الاتحاد إلى جانب التابعيات الماسونية الكبرى في لجنة العمالة. تحمل هذه اللجنة اسم الاتحاد والتضامن والعمالة. نظراً لكون هذه اللجنة مبنية على المستوى القومي فهي تعمل بفعالية بفضل فروعها الإقليمية، كما أنها تسمح بالتنسيق بين عروض العمل وبين الطلبات ليس فقط للماسونيين بل أيضاً لعائلاتهم وأقاربهم.

أنشأ الاتحاد الفرنسي جمعية تسمى «التعاون» [انتريد]. وهي تمكِّن من إنجاد الإخوة والأخوات مؤقتاً أو بصورة دائمة عند الحاجة، وتساهم أيضاً في الكثير من الحركات التي تفيد في انتظامٍ أو ما بين آنٍ وآخر بتخفيف آلام المحتاجين «الصليب الأحمر، النجدة الشعبية، مطاعم الفقراء (رستو دو كور)...».

إن هذا المد التضامني يصل كذلك إلى العالم الثالث. فمحافل «الحق الإنساني» تشترك حالياً في تمويل «جمعية الطفولة المعذبة» التي تهتم بأيتام التوغو [إفريقيا]. وقد استقبلت حتى اليوم 20 طفلاً. كما أن الإنجازات الجارية سوف تسمح في النهاية باستقبال 120 يتيماً.

في سنة 1998 إثْرِ دراسة المسألة الاجتماعية التي تمَّ التصويت عليها في الجمعية العمومية الفرنسية حول موضوع سوء معاملة الأطفال، بادر محفل «سيرينيتي» في مدينة فيتري - لو - فرنسوا «Vitry-le-François» إلى إنشاء حركة لصالح «الأطفال والمراهقين المتشردين»، وذلك مع محفل «جاك دو موليه (Jacques de Molay)»، في مدينة بيريرا «Pereira» (كولومبيا).

فأنشأ المشغلان معاً مؤسسة «طفولات 232 فرنسا ـ كولومبيا»، وهي جمعية تأخذ على عاتقها رعاية عشرات الأطفال.

كما أنها تنوي في عام 2002 إنشاء «مدرسة الفنون والمهن التقليدية» في كولومبيا.

الفصل السابـع

لماذا «الحق الإنساني» اليوم؟

في نهاية هذه المحاولة الدراسية طبيعي أن يُطرح السؤال: لماذا يرغب بعض النساء اليوم وكذلك بعض الرجال في تلقي المساررة الماسونية في محفل «الحق الإنساني»؟ وكيف هي الحياة داخل المحفل؟

1 ـ لماذا الدخول إلى «الحق الإنساني» في عام 2002؟

في العالم الدنيوي هناك بوجه العموم جهل كبير بالماسونية، فوسائل الإعلام قلَّما تتكلم عن مبادئها وأعمالها، ولكنها سخية جداً في نقل «الصفقات»، وتغذي الشائعات بوجود أخوّة خفيَّة ومتنفذة، مما لا يشجع إقدام الدنيويين على الدخول إليها. ولكن حتى لو حصلت «الصفقات» فهي ليست الماسونية.

إذن كيف يستطيع الدنيوي أن يطَّلع بصورة أصح على المسار الماسوني؟

إن دخول الدنيوي إلى الماسونية قد ظلَّ طويلاً غير ممكن خارج الانتخاب الرفاقي. فالماسوني الحائز عُموماً على درجة

«أُستاذ» على الأقل وهو على اتصال بالإنسان الدنيوي يصبح «عرَّابه». هذه العِرابة الاعتيادية، التي رغم ذلك ليست إلزامية تسمح بتذكير الماسوني القادم بأن القواعد التي تتحكم هي التي تتعلق بالشرف وليس بالصفقات.

اليوم في انطلاقة التقنيات الحديثة في الاتصال والإعلام، يملك «الحق الإنساني» موقعاً على الأنترنت، حيث يستطيع الدنيويون الاستعلام وطرح الأسئلة، بل أيضاً طلب الانتساب. كما يقوم «الحق الإنساني» وخلال أربع أو خمس مرات في السنة بالمُضيِّ في بحث فكري على موجات راديو «فرنسا ـ الثقافة»؛ هذه البرامج الإذاعية تمكن الدنيويين من فهم أعمق للقيم التي تتمسك بها المنظمة. أخيراً ينظم «الاتحاد الفرنسي» على فترات مُنْتَظِمة الكثير من المؤتمرات التي تستضيف الدنيويين. هذه هي حالياً الطرق المتنوعة التي تسمح للجميع بتكوين نظرة أكثر دقة عن المسار الماسوني.

عديدة هي التابعيات الماسونية، خصوصاً في فرنسا. فلماذا اعتُمد «الحق الإنساني» كخيار؟ لا شك أن الاختلاط هو عامل حاسم. ففي محفل «الحق الإنساني» يتجاور الرجال والنساء في مساواة كاملة. وباكتماله يغدو الاختلاط خلاَّقاً، ويقدم إمكانية تغذية مستويات التساؤل من زاويتين مختلفتين. هذا الفارق وهذه المسافة ضروريان لتقدير حجم أية مشكلة، والماسونية كطريقة استقبال وتعبير عن الفكر البشري هي بوتقة متميِّزة يعمل ضمنها الرجال والنساء العصريون والذين يسعون معاً من أجل تقدم الإنسانية.

إن المحفل هو عبارة عن عالم مصغر عن المجتمع، فالدين

والوضع الاجتماعي والتأهيل الثقافي والجماعة الإثنية لا تخلق جميعها أية عَوَائِق، ففي الحياة الدنيوية يضطلع الرجال والنساء معاً بالمسؤوليات العائلية ويعملون معاً في قطاعات الأعمال نفسها، ويشتركون في الحياة النقابية والسياسية، وأيضاً في الجمعيات. إنه لأمر منطقي أن يجتمعوا في الماسونية. هذا ما أدركه المؤسسون منذ عام 1893 وهو ما يجتذب حتى الآن الإنسان الدنيوي. إلا أن «الحق الإنساني» يسهر على تجنب هذه العثرة، أي تلك التي تجعل من الاختلاط ماسونية زوجية أو عائلية. فوجود الأزواج في «الحق الإنساني» يقتضي على الدوام وفي البداية مساراً فردياً يلزم الواحد كما الآخر.

إن «الحق الإنساني» يتطلب من الدنيوي الراغب في الدخول إلى الماسونية أن يكون «حراً وحسن المسلك». هذه العبارة التقليدية تصلح لجميع التابعيات الماسونية.

فأن يكون الدنيوي حراً، هذا يعني أنه يتوجب عليه التفكير قبل أن يتبنى رأياً، وأن يحذر من الأفكار المسبقة، أي أن يعرف كيف يميِّز بين الأمور. وأن يكون حسن المسلك، فمعنى هذا أنه بالإضافة إلى الاستقامة الشخصية يجب عليه أن يلتزم مجموعة قيم، مثل الاحترام المطلق للآخر والإيمان باكتمالية الإنسان وضرورة العمل في سبيل الوصول إلى هذه الاكتمالية.

إن المساررة الماسونية مرحلة مميَّزة جداً. فهي ليست عبارة عن باب مشرَّع لطريقة علاجية. فلا ندخل إلى الماسونية من أجل «إيجاد حلول للشعور بالضيق ولصعوبات التكيف أو التصرف. إن التوازن النفسي السليم ضروري للاندماج في الجماعة، التي هي المحفل. إنَّ المسألة لا تكمن في تنمية «أنا»

مضخم، بل في إقناع الذات بأن كلَّ ماسوني هو عضو في المحفل من بين آخرين. إن الرسالة التي تحملها الرموز تقتضي هذه النزاهة كي تبلغ كلَّ واحد و«تفعل فيه»».

إنَّ الماسونية تستعين بعُمق ثقافي غربي، رموزها تأتي من تقليد ثقافي قد طبعه بعمق «**الكتاب المقدس**» ومصر والحضارات اليونانية والرومانية و«المقامات الرفيعة للرفاق البنائين» للقرون الوسطى وفلسفة عصر الأنوار... إلخ. بالطبع كان لا بدَّ أن يعيق هذا الشيء مسار البعض، سواء في أوروبا أم في سائر أرجاء العالم. كما أنه يجعلنا ندرك الأسباب وراء تساكن تيارين (العقلاني والروحاني)، ولكن ما يشكل اللُحمة بين الرجال وبين النساء من ثقافات متعددة هو الأخوة الإنسانية. وفي الواقع ولد «الحق الإنساني» من رغبة في المساواة ومن النضال ضد استغلال النساء والأولاد. وما يزال أمام العالم في سنة 2003 الكثير لإنجازه في هذا المجال.

ينبغي على المحفل الماسوني ألاّ يكون ذا شكل موحد، كما أن التنوع فيه هو من الأمور الأساسية. ويصبح أكثر انسجاماً عندما يتجاور داخله أناس مختلفون من حيث عمرهم ووضعهم الاجتماعي وجنسهم وثقافتهم، وهذا الاختلاف هو خصوصية «الحق الإنساني». فضمن هذه الشروط وحدها يمكنه عملياً أن يجسد خط التقاء ورابطاً بين كل مكوِّناته.

لمزيد من الدقة، يجب أن يكون في مقدورنا تحليل التركيب السوسيولوجي للمحافل وللمنظمة بأكملها. إن الاختيار يتم بصورة رئيسية في الأوساط المدينية. السبب الأول لهذا هو كون الهياكل الماسونية موجودة في المدن. إلاّ أنه أصبح واضحاً مع الوقت أن

توافر السيارة يسهل التنقلات بالتالي يسمح بالانتقال من القرية إلى المدينة لحضور «الجلسات» (الاجتماعات الماسونية المنتظمة). في الواقع، تتكون غالبية الأعضاء من الفئة الاجتماعية السائدة وهي في أوروبا فئة الطبقة الوسطى: كموظفي الإدارات والتجارة والمعلمين والمهن الحرة (المحامون والأطباء إلخ...). بالعكس، هناك القليل من العمال والمزارعين. فالمحافل تقدم لوحة سوسيولجية غير كاملة. إنه من الصعوبة بمكان تغيير هذا الوضع لأنه لا يمكن إقناع رجال ونساء بالانضمام إلى الحركة الماسونية في حين تكون انشغالاتهم متجهة بصورة بيِّنة نحو الحركات السياسية أو النقابية مثلاً.

2 ـ الحياة في المحفل

إن الماسونية هي مسار فردي إلاّ أنها ليست هذا وحسب. فالدرب المساري يؤخذ ضمن إطار طائفة تقليدية. هذا المسعى المساري يقتضي التعمق في الروحانية. فمن الجائز القول بأن الماسونية هي روحانية علمانية. إن هذه العبارة رغم ما تبديه من الغرابة يمكن توضيحها بطريقتين: فهي تدل أولاً على أن الماسونيين يهدفون إلى تحقيق شعار المنظمة: «أوردو آب كاوو» «Ordo ab Chao» من أجل مزيد من الانسجام بين البشر. وتعني ثانياً أن المؤمنين واللاأدريين والملحدين لهم مكانهم فيها، وأن كلًّا منهم يمكنه أن يأمل بإعطاء معنى لحياته.

إن الماسونيين يدعون إلى احترام «التقليد»، الذي ليس هو ذاك الحنين إلى الماضي. بل إنه الذي يهبنا نوراً متأتياً ممن سبقونا، ولكنه يدعونا بالقدر نفسه إلى إزاحة الستار عنه والعمل على أن يكون أكثر فأكثر إشعاعاً لنا وأيضاً للبشرية جمعاء. إذن،

تقليدياً، تعمل المحافل وفق الطريقة الرمزية والطقسية. فالطقوس تهيِّئ الإخوة والأخوات للتفكير في جو هادئ فتنقلهم إلى مساحة وزمن «مقدسين»، أي محميين من الاضطراب الخارجي. وهنا نجد أحد أسباب «السر» الماسوني.

إنَّ عمل الماسوني يستند إلى رمزية البنَّائين: المقصود هو البناء باستخدام الأدوات الأكثر تلاؤماً. وأي معتقد قد يجمد التفكير لن يكون مثبتاً. فليس هناك تعليم ديني للرموز، والمسألة ليست عبارة عن معارف يمكن نقلها بصورة منهجية، بل أنها يقظة تدريجية للضمير. إن الطريقة الماسونية تضع المساررِي في حالة حركة. إنها بصورة إرادية تقوِّض التوازن، وهدفها هو كسر العادات واليقين، فهي تساؤل متكرر، تساؤل حول الذات ولكن أيضاً حول الآخرين والعالم.

إن الماسونية هي طريقة درجات. فالمحافل الرمزية تمنح الدرجات الثلاث الأُوَل: المريد والرفيق والأستاذ. فيما بعد هناك درب مساررِي طويل يمكن أن يؤدي بالماسوني إلى الدرجة 33. وهكذا يجتاز كل واحد بوتيرته الخاصة الدرب المساررِي، الذي يقوده نحو الحرية الداخلية الحقيقية. في هذه المسيرة، كل الماسونيين، وبحسب درجة مساررتهم، لهم الحقوق نفسها وعليهم الواجبات نفسها: الجميع يتمتع بنوعية الاهتمام نفسه، كما عليه واجب الرعاية نفسه تجاه الآخر. أخيراً، إن المحفل هو المكان الذي يجب أن تسود فيه الأخوة. فهو ليس معطى مسبقاً بل أنه ثمرة عمل مكتمل ومشترك. فكل فردٍ فيه هو الشاهد على الآخر. وفي المحفل يوضع الإخوة والأخوات عند «الأعمدة» في مواجهة بعضهم بعضاً: الأخ مقابل الأخ. وهكذا يعاش هذا الشعار الماسوني بصورة ملموسة: الحرية والمساواة والأخوة.

إن المشاركة في أعمال المحفل ليست مجرد نشاط معيَّن. ففي داخلها ليس هناك مشاهدون بل لاعبون فقط. إن الماسوني لا يتبع التيار، بل يسير فيه صعوداً للولوج في معنى حياته نفسها. إنه التزام يغير نظرة المساري إلى نفسه وإلى العالم.

هذا «النور» المكتسب في داخل المحفل هو الذي يلتزم الماسوني نقله إلى الخارج. فيتعهد على نفسه بمحاربة الأحكام المسبقة والجهل والظلم. وعليه أن يكون مواطناً: حريصاً على حماية الحريات الأساسية، ذاك الذي يسعى إلى اكتساب حريته الداخلية، الساهر على تطبيق المساواة بين الجميع، ذاك الذي يتمتع بهذه المساواة داخل محفله، المنفتح لقبول الآخر، هو هذا الذي انتصر في امتحان الأخوة.

الخاتمة

إن المنظمة الماسونية المختلطة الدولية ـ الحق الإنساني هي منظمة حديثة. فتاريخها يغطي فقط قرناً ونيف من الزمان وكتابته مسألة على جانب من الحساسية.

ومن الصعوبات المواجهة في هذا المجال تكمن خصوصاً في مراجعة المصادر. فالكثير من الارشيفات قد اختفت، في أغلب الظن أنها أُتلفت. إن الحربين العالميتين والحروب الاستعمارية والحروب الأهلية والأنظمة الدكتاتورية شكّلت مراحل صعبة كان فيها الاضطهاد قوياً، بحيث لم تحفظ الوثائق بعناية.

في عام 2000 أعادت روسيا ملفات كانت قد وضعت يدها عليها منذ سقوط الرايخ الألماني. يبقى بعض الأمل في استرجاع وثائق أخرى ضائعة في صناديق لم يجر بعدُ فرزها. بالإضافة إلى ذلك، فهناك العديد من المشاغل التي أهملت بنفسها أرشيفاتها، ولم تبوبها دَوْريَّاً، حتى في زمن السلم. إن عالمية «الحق الإنساني» تضيف صعوبة أخرى هي: التباعد الجغرافي بين المحافل وبين المحافل المرجعية وبين الاتحادات، وكذلك التنوعات اللغويَّة. فاللغات المستخدمة في المستوى الرسمي هي ثلاث: الفرنسية والإنكليزية والإسبانية. ولكن أيضاً العديد سواها وذلك في البلدان التي يستقر فيها «الحق الإنساني». ففي أوروبا وحدها

نذكر على سبيل المثال الألمانية والإيطالية واليونانية والهنغارية والرومانية وأيضاً الدانماركية والسويدية والنروجية. هذه القائمة تعيدنا بالذاكرة إلى برج بابل. ولكن لحسن الحظ إن اللُّحمة متوافرة وهي الأخوة والمساواة.

إن الأفضل حفظاً هي أرشيفات النصف الثاني من القرن العشرين، لكنها حديثة جداً. فهي لا تدخل في «الذاكرة الميتة» التي قد تصلح لأن تُستخدم من قِبل المؤرخين. لقد احترمنا هذه القاعدة من أجل تجنب أي جدل قد يكون صحافياً أكثر منه تاريخياً، نظراً لأن المسافة بين الأحداث وصانعيها ليست كافية كي تسمح بنظرة حيادية.

إن الدراسة التي قمنا بها تُظهر مدى الغنى الذي تقدمه الصفة الدولية والاختلاط. فلقد ولد «الحق الإنساني» في حقبة كان الاعتراف بحقوق المرأة ما يزال مجرد مطلب؛ وانخرط في هذه الحركة ولكنه كان حكيماً في إدراكه أن البشرية هي مختلطة، بالتالي إن المطالبة بحقوق النساء لا تؤدي إلى الإنقاص من حقوق الرجال. هذا هو التعبير عن المساواة بالنسبة إلى «الحق الإنساني».

لقد ولدت المنظمة في فرنسا وحافظت على مركزها في باريس، الدائرة 13، الواقع في 5 شارع جول ـ بروتون. فكل اتحاد وكل محفل مرجعي لديه مركزه الرئيس الخاص. ولكن في العالم هناك نساء ورجال من جنسيات وثقافات وأصول إثنية مختلفة يتجاورون ويمارسون الطقوس نفسها. إن التزامهم الفردي يقوم على أفكار كونية يؤمنون بها: الحرية والمساواة والتسامح والعَلْمانية حتى ولو لم يعبِّروا عنها بالطريقة نفسها. بالفعل، فإن

الإنسان هو الذي يشكِّل مركز تفكيرهم. إنَّ الاختلافات قد تعطي نسيجاً ممزقاً، ولكن الحياكة التي تجمع القطع هي الإخوة، وهذه بدورها شديدة المتانة. على هذا النحو، يتعايش ضمن المساررة تقليدان دون أن يصطدما، وهما: «الطقس الإسكُتلندي القديم والمقبول» و«الطقس الإنكليزي». هنا ليس ثمة مِن تنافُس بل تكامُل في التعبير عن عولمة إنسانية.

إن «الحق الإنساني»، كونه جمعية مساررية كسواها من التابعيات الماسونية، لا يقتصر على ممارسة الرمزية في سكون الهياكل، بل إنه منفتح على العالم حيث كل عضو من أعضائه فاعل. فيربط كل منهم الفعل بالتعمق في معرفة الذات من أجل فهمها بأفضل وجه محترماً بذلك ذكرى المؤسسين لِـ «الحق الإنساني». لقد كتبت ماريا دوريسم وصيتها الفلسفية يوم مساررتها قائلة: ... لا أدري إنْ كنت أهب لمن بعدي مثالاً كبيراً، ولكنني أؤكد أنني أترك خلفي نموذجاً عن القناعة الأكثر عمقاً في الكمالية اللامتناهية للإنسانية والأكثر صدقاً عن المحبة لأمثالي».

إن كل ماسوني من «الحق الإنساني» ورغم مرور الزمن ما يزال يتبنى هذه القناعة.

قائمة الأعضاء المؤسسين

ماري ـ بيكيه دو ڤيين؛ لويز داڤيد

Marie Béquet de Vienne; Louise David.

ماريا دوريسم؛ شارلوت دو ڤال

Maria Deraismes; Charlotte Duval.

آنّا فيريس ـ دوريسم؛ إليزا ليڤي ـ موريس

Anna Féresse Deraismes; Elisa Lévy - Maurice.

جورج مارتان؛ ماريا مارتان

Georges Martin; Maria Martin.

ماري ـ جورج مارتان؛ فلورستين موريسو

Marie - Georges Martin; Florestine Mauriceau.

جولي باسكييه؛ ماري بيير

Julie Pasquier; Marie Pierre

ميرتييه رينيه؛ كليمنص روايه

Myrtille Rengnet; Clémence Royer.

أليسكا ڤانسان؛ لويزا فيغيشوف

Eliska Vincent; Louise Wiggishoff.

مجمع الأحبار الأول في المحفل المختلط

الجليل: ماريا دوريسم.

الجليل الفخري: كليمنص روايه.

الناظر الأول: ماري ـ بيكيه دو ڤيين.

الناظر الثاني: ماري ـ جورج مارتان.

الخطيب: جورج مارتان.

السكرتير: ماريا مارتان.

أمين الصندوق: آنًا فيرس ـ دوريسم.

المضيف: إليزا ليفي ـ موريس.

الخبير الأكبر: جولي باسكيه.

الخبير الأول: فلورستين موريسو.

الخبير الثاني: أليسكا فانسان.

أستاذ الاحتفالات: لويزا فيغيشوف.

المعلمون الكبار في «الحق الإنساني»

● **ماري ـ جورج مارتان** (1850 ـ 1914): زوجة جورج مارتان، هي العضو المؤسس لـ «الحق الإنساني» في المحفل المختلط الأول. مارست مهمة «المعلم الجليل» بعد ماريا دوريسم وآنًا فيريس ـ دوريسم، وكانت المعلم الأكبر للمنظمة بين 1903 و1914.

● **ماريا بونيفيال** (1841 ـ 1918): خلفت ماري ـ جورج مارتان في عام 1918. وفي سنة 1870 شاركت كممرضة متطوعة في منظمة الغريبالديين [نسبة إلى غريبالدي]؛ وكمدرِّسة علمانية ومناضلة اشتراكية؛ ولقد اضطُهدت من قِبل حكومة «التنظيم الأخلاقي» ثم صُرفت من التعليم عام 1872. أدارت نشاطات ما قبل مدرسية ثم ما بعد مدرسية وأنشأت النقابة التعليمية الأولى. وكانت رئيسة رابطة حقوق النساء التي أسسها شولشير. قضت بحادث سير عام 1918.

• **أوجين بيرون** (1863 ـ 1928): كان إنساناً عصامياً وأصبح عالم كيمياء. ألقى أثناء الحرب، متطوِّعاً، محاضرات في «اتحاد الشبيبة الفرنسية». لقد كان مناضلاً اشتراكياً، وتلقى المساررة، عام 1898 في المحفل رقم 1 في باريس. وخلال فترة رئاسته «كالمعلم الأكبر» عقد أول جمعيتين عموميتين دوليتين عام 1920 و1927 ثم أصبح الرئيس الأول للمجلس القومي للاتحاد الفرنسي عند إنشائه في عام 1921. ولقد برهن عن كفاءاته الإدارية.

• **لوسيان ليڤي** (1882 ـ 1935): أصبح عالم كيمياء شهير بعد دراساته في مختبر الفنون والمهن. حصَّل تعليمه في مدينة أنجيه. وتلقى المساررة عام 1904 في المحفل رقم 1 في باريس بعمر 22 سنة. ثم أصبح المعلم الأكبر ابتداءً من 1928، واضطرَّ إلى التخلي عن مهمته عام 1934 لدواع صحية.

• **هنري بتي** (1868 ـ 1955): هو خبير في شركات التأمين، تسلم المساررة في الشرق الكبير لفرنسا عام 1895 ثم انتسب إلى محفل غيبان (Guépin) رقم 32 في مدينة نانت (Nantes). أصبح رئيس المجلس الوطني للاتحاد الفرنسي عام 1928. ومنذ 1934 وحتى 1947 كان «المعلم الأكبر» للمنظمة. ولقد تعرض أثناء الحرب لمداهمات ولتحقيقات الشرطة.

• **مارغريت مارتان** (1877 ـ 1956): تلقت مساررتها في المحفل المختلط الأول. ولعبت دوراً هاماً في إعادة التوحيد بين هذا المحفل الأخير و«الحق الإنساني» الذي انضمت إليه عام 1922. وقد تسلمت في البداية مهمة رئاسة المجلس القومي للاتحاد الفرنسي قبل عام 1938 وكانت «المعلم الأكبر» منذ 1947

وحتى 1954. فوقعت على عاتقها المسؤولية الثقيلة في تأمين استئناف نشاطات محافل «الحق الإنساني» غداة الحرب.

- **شارل كامبيار** Charles Cambillard (1892 ـ 1982): كان أستاذاً في اللغة الإنكليزية. تسلم المساررة في المحفل الباريسي لِـ «الحق الإنساني» رقم 55 عام 1919. وشغل مركز «المعلم الأكبر» خلال خمسة عشر عاماً (1954 ـ 1969). لقد ضخ الدم في شرايين المنظمة واستنهضها وأمَّن لها سبل التوسع.

- **أندريه كليمان** André Clément (1897 ـ 1986): تلقى المساررة في «الشرق الكبير» لفرنسا عام 1939 وانتسب إلى «الحق الإنساني» عام 1945، ثم أنشأ المجلس الأكبر للاتحاد الفرنسي عام 1958 وأصبح «المعلم الأكبر» بين عامي 1969 و1976.

- **جاك شواسيز** Jacques Choisez (1910 ـ 1998): كان مهندساً وتلقى المساررة عام 1933 في بروكسيل، وكان نشيطاً جداً في المجال الاجتماعي. أنشأ أول مركز لتنظيم الأسرة في بلجيكا. وقد شغل ولايتين كمنصب «المعلم الأكبر» بين سنتي 1976 و1990. (لأول مرة لم يُعهد بهذه المسؤولية إلى فرنسي).

- **مارك غروجان:** ولد عام 1918، مؤرخ ونقابي مناضل، لقد تسلم المساررة في «الشرق الكبير» لفرنسا عام 1938 في مدينة نانسي، وانتسب إلى «الحق الإنساني» عام 1956. ومارس على التوالي مهمات «الفارس الأكبر الفائق العظمة» في الاتحاد الفرنسي ثم «المعلم الأكبر» للمنظمة بين عامي 1990 و1997. وهو حالياً المعلم الأكبر الفخري لها.

- **نيوردور نيارفيك:** ولد عام 1936. وهو أيسلندي. دكتور

في علم اللغات (الفيلولوجيا Philology). وأستاذ جامعي شهير. تلقى المسارة عام 1958 في محفل «إيمير» في مدينة ريكيافيك، وهو المعلم الأكبر الحالي للمنظمة وذلك منذ عام 1997.

قائمة البلدان التي يوجد فيها «الحق الإنساني»

إفريقيا:

إفريقيا الجنوبية؛ بوركينافاسو؛ بوروندي؛ كاميرون؛ شاطئ العاج؛ جزر الموريس؛ مدغشقر؛ مالي؛ رواندا؛ سينغال؛ تشاد؛ توغو؛ زائير...

أميركا:

الأرجنتين؛ البرازيل؛ كندا؛ شيلي؛ كولومبيا؛ كوستاريكا؛ الولايات المتحدة الأميركية؛ هوندوراس؛ المكسيك؛ الباراغواي؛ البيرو؛ جمهورية الدومينيك؛ الأوروغواي؛ فنزويلا.

أوروبا:

ألمانيا؛ النمسا؛ بلجيكا؛ بلغاريا؛ الدانمارك؛ إسبانيا؛ فنلندا؛ فرنسا؛ اليونان؛ هنغاريا؛ إيسلندا؛ إيطاليا؛ اللوكسمبورغ؛ النروج؛ هولندا؛ بولونيا؛ البرتغال؛ الجمهورية التشيكية؛ رومانيا؛ إنكلترا؛ السويد؛ سويسرا.

سائر مدن العالَم:

أستراليا؛ أندونيسيا؛ كاليدونيا الجديدة؛ تاهيتي.

الهوامش

(1) **النشرة الدولية**، العدد الأول، كانون الثاني/ يناير ـ شباط/ فبراير ـ آذار/ مارس 1920.

(2) **النشرة الشهرية** لـ «الحق الإنساني»، كانون الأول/ ديسمبر 1901.

(3) **الدستور الدولي** لـ «الحق الإنساني»، نشرة عام 1997.

(4) **النشرة الشهرية** لـ «الحق الإنساني»، كانون الأول/ديسمبر 1901.

(5) مارك غروجان، **«الحق الإنساني الدولي»**، ص 181.

(6) انظر كتاب ميشال كورديبو: **«الحركة الاجتماعية في أميركا، معجم تاريخ سيرة الحركة الاجتماعية الفرانكوفونية في الولايات المتحدة»**، منشورات اتولبيه، 2002، (ص 210 ـ 214).

(7) ولايات: ماساشوستس، نيويورك، إيلينوا، ميشيغان، ويسكونسن، أنديانا، أوهيو.

(8) ايبووا، داكوتا الجنوبية، مينيزوتا.

(9) مونتانا، وايومنغ، كولورادو، أوتا، نيڤادا.

(10) كاليفورنيا، ولاية واشنطن.

(11) أوكلاهوما، كنساس، مكسيك الجديدة.

(12) يقع مركزه في 49 بولفار بور ـ روايال، باريس، الدائرة 13.

(13) هذا التعريف هو لِ دانيال ليغو Daniel Ligou.

(14) أ. كومب، A. Combes **«الماسونية تحت الاحتلال»**، منشورات روشيه، 2001.

ببليوغرافيا

Bacot Jean-Pierre, *Les filles du pasteur Anderson*, Paris, EDIMAF, 1988.

Boyau Rémy, *Histoire de la Fédération française du Droit Humain*, Bordeaux, Le Droit Humain, 1962.

Buisine Andrée, *La franc-maçonnerie anglo-saxonne et les femmes*, Paris, Trédaniel, 1996.

Brault Éliane, *La franc-maçonnerie et l'émancipation des femmes*, Paris, Dervy, 1967.

Deraismes Maria, *Les droits de l'enfant*, Villeurbanne, Éditions Mario Mella, 1999.

Grosjean Marc, *Considérations sur le Droit Humain*, Imprimerie nancéienne, 1981.

Grosjean Marc, *Georges Martin, franc-maçon de l'universel*, 2 vol., Paris, Detrad, 1988.

Grosjean Marc, *Le Droit Humain international 1913-1947. De l'éveil à la mise en œuvre*, Paris, Detrad, 2002.

Histoire de la Fédération belge du Droit Humain (2 t.), 1988.

Hivert-Messeca Gisèle et Yves, *Comment la franc-maçonnerie vint aux femmes ? Deux siècles de franc-maçonnerie féminine d'adoption et mixte (1740-1940)*.

Hodson Geoffrey, *At the Sign of the Square and Compasses*, Adyar, 1976.

Jupeau-Requillard Françoise, *La Grande Loge Symbolique Écossaise (1880-1911) ou les avant-gardes maçonniques*, Paris, Éditions du Rocher, 1997.

Jupeau-Requillard Françoise, *L'initiation des femmes*, Paris, Éditions du Rocher, 2000.

Kierzek Bernard, *Le Droit Humain à Nancy (1909-1999)*, Nancy, Hélioservice, 2000.

Le Forestier René, *Maçonnerie féminine et loges académiques*, Milano, Éditions Arche, 1979.

Petit Henri, *Cinquante années de Suprême Conseil* (manuscrit), 1951.

Publications internes au Droit Humain :

Comptes rendus des convents nationaux et internationaux.
Bulletins du Droit Humain (1894-1914).
Considérations générales sur la franc-maçonnerie par Georges Martin, 1904.
Bulletin international de l'Ordre Maçonnique Mixte le Droit Humain, années 2001-2002, n^{os} 19, 20, 21.
Cahiers de la Commission de l'Histoire de la Fédération française du Droit Humain.
Hommages à nos aînés. 1954.
Esquisse des origines et de l'évolution de l'Ordre Maçonnique International le Droit Humain. Éditions Mukanda (Belgique), 1993.
Célébration du centenaire du Droit Humain, Paris 1993.
Célébration du soixante-quinzième anniversaire de la Fédération française du Droit Humain, Paris, 1997.
Grands maîtres vous avez la parole. Textes rassemblés par Danièle Juette et Yvette Ramon, La Moderna, Saragosse (Espagne), mai 2002.
La mission de la franc-maçonnerie, Marthe Veaux, 1986.

المحتويات



المنظمة الماسونية والحق الإنساني

تأسست التابعية الماسونية للحق الإنساني عام 1893 على يد ماريا دوريسم وجورج مارتان وهي تستقبل في محافلها رجالا ونساءً وتنتشر الآن في خمسين بلداً تقريباً.

يسترجع هذا الكتاب تاريخ المنظمة الماسونية المختلطة التي يتابع أعضاؤها المسعى الروحي والرمزي ملتزمين، ومنذ أكثر من قرن على المستوى القومي والدولي، بنضالات اجتماعية وسياسية في سبيل العلمنة والتسامح، ولكن أيضاً من أجل حقوق النساء والأطفال.

أندريه برات

أستاذة التاريخ والمسؤولة في لجنة تاريخ الحق الإنساني.

د. جورجيت الحداد

باحثة لبنانية تقيم في فرنسا، من مواليد العام 1952 وعملت أستاذة في معهد العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية ما بين 1980-2000.

من ترجماتها: "الطبقات الاجتماعية" لـ يانيك لوميل (سلسلة نصوص).

ISBN 9959-29-356-4
9 789959 293565

موضوع الكتاب الحركة الماسونية

موقعنا على الإنترنت
www.oeabooks.com